استعان تشرشل، في خطبه ومقالاته الصحفية، بمعرفته الواسعة للشؤون العسكرية وباستيعابه التفاصيل عند توجيه النقد إلى كيفية إدارة الحرب. كان هناك الكثير مما يمكن انتقاده، وهذا أمر كان لويد جورج يعرفه معرفة جيدة. ولكنه كان قاصر اليدين عن فرض وجهات نظره على قادة الحلفاء العسكريين، وفي الآن نفسه كان بصفته رئيساً للوزراء، مسؤولاً أمام البرلمان عن اخفاقاتهم المستمرة والباهظة الثمن. لقد أبقى تشرشل خطوط اتصالاته مفتوحة فأرسل انذاراً شخصياً إلى رئيس الوزراء أبلغه فيه ان جماعات المعارضة المتباينة في مجلس العموم والناقمة على طريقة إدارة الحرب، قد توحد صفوفها لإسقاطه.

وصادف ان التقى تشرشل ولويد جورج في ١٠ أيار (مايو) ١٩١٧ بعد جلسة عقدها مجلس العموم، فأبدى رئيس الوزراء رغبته في ان يضم تشرشل إلى وزارته. ومع انه كان لا يزال يرى ان تشرشل «أفسد نفسه بقراءاته عن نابليون» فقد أسرّ إلى فرانسيس ستيفنسون، سكرتيرته وعشيقته، انه بحاجة إلى تشرشل لكي يدخل البهجة إلى نفسه ويشجعه في وقت كان فيه محاطاً بزملاء ترتسم على وجوههم الكآبة[١٠].

وكالعادة كان السؤال أيتهما المجازفة الكبرى: إبقاء تشرشل خارج الحكومة أو ضمه إليها. في منتصف تموز (يوليو) عيّن تشرشل وزيراً للذخائر. ومع ان هذا المنصب لا يخوّل إلى عضوية في مجلس الوزراء الحربي، فقد قوبل تعيينه على الفور بمقاومة عرضت وجود الحكومة للخطر بعض الوقت[*].

كتبت عمة تشرشل إليه مهنئة بتعيينه وزيراً للذخائر فقالت: «نصيحتي أن تتشبث بوزارة الذخائر وإياك ان تحاول ادارة شؤون الحكومة»[١٢]. لقد دفع هذا التعيين الجديد جريدة «التايمز» إلى التحذير من ان البلاد «لا يتحمل مزاجها هذه المحاولة التعسة لإحياء استراتيجية الهواة»[١٣]. كانت عائلة تشرشل وكان أصدقاؤه قلقين من أجله، وكانت جحافل أعدائه والناقمين عليه قلقة من أجل البلاد. ولا بد انهم كانوا سيجزعون، دون ان يدهشوا، لو علموا انه، في غضون اسبوع بعد تعيينه، تقدم إلى سكرتير مجلس الوزراء الحربي بخطة بعثها إلى الحياة من

---

(١٠) مارتن جيلبرت، **ونستون س. تشرشل**، المجلد ٤، ١٩١٦ ـ ١٩٢٢، **العالم المضروب**، (بوسطن: هوتن ميغلين، ١٩٥٧)، ص ١٨.

(*) كان انقاذ لويد جورج على يد بونار لو الذي كبح جماح جماعته المحافظين الغاضبين. كان بونار لو يكره تشرشل، وقد استاء لعدم أخذ رأيه في الأمر. ولكنه ظل وفياً لرئيس الوزراء. واعتمد لويد جورج على نباهته فقال له إن اسكويث كان قد تعهد في حال عودته رئيساً للوزراء، بأن يعيد تشرشل الى السلطة في منصب لورد الأميرالية الأول[١١]. كانت الرسالة الضمنية التي أراد ايصالها الى بونار لو، هي أن حكومة لويد جورج التي يقتصر دور تشرشل فيها على منصب أقل أهمية نسبياً، هي الحكومة الفضلى.

(١١) جيلبرت، **تشرشل: المجلد المرافق**، ص ٩٩.

(١٢) جيلبرت، **تشرشل: المجلد ٤**، ص ٣٠.

(١٣) جيلبرت، **تشرشل: المجلد المرافق**، ص ١٠١.

جديد لغزو الشرق الأوسط. فقد اقترح إنزال جيوش بريطانية في مرفأ اسكندرون لغزو شمال سورية وقطع خطوط النقل والمواصلات في الامبراطورية العثمانية[١٤]. لكن مجلس الوزراء الحربي تجاهل اقتراحه فلم ينتج عنه شيء.

(٢)

لم تنقض أشهر على تولي لويد جورج منصبه حتى كان قد شرع في مفاوضات سرية مع أنور باشا، أحد زعماء حزب تركيا الفتاة. وكان وكيله في المفاوضات هو فينسنت كيلارد، المدير المالي لشركة فيكرز الضخمة التي تنتج أسلحة، والذي سبق ان أمضى سنين عديدة في القسطنطينية رئيساً لمجلس ادارة الدين العام العثماني. وكان كيلارد، بدوره، يقوم بهذه المهمة عبر شريك تجاري مقرب منه، هو بازيل زاخاروف، الذي شق طريقه من عالم الجريمة في ازمير ليصبح أشهر بائع سلاح سيىء الصيت في العالم، وأطلقت عليه الصحافة لقب «تاجر الموت». وقد سافر زاخاروف إلى جنيف في عام ١٩١٧ وعام ١٩١٨، وأبلغ كيلارد انه يستطيع اجراء مفاوضات مع أنور باشا أولاً عن طريق وسيط ثم وجهاً لوجه[١٥].

وقد عرض رئيس الوزراء البريطاني بواسطة مبعوثه رشاوى ـ حسابات كبيرة في المصرف ـ إلى أنور وشركائه مقابل الخروج من الحرب بموجب شروط بريطانيا، وهي: ان تستقل شبه جزيرة العرب، وان تتمتع أرمينيا وسورية بحكم ذاتي محلي ضمن الامبراطورية العثمانية، وان تصبح بلاد الرافدين وفلسطين محميتين بريطانيتين على أساس الأمر الواقع، مثل مصر قبل الحرب، ولكن تحت السلطة العثمانية من حيث الشكل، وضمان حرية الملاحة في الدردنيل. مقابل ذلك عرض لويد جورج ان تظل الامتيازات (أي المعاهدات التي تمنح الأوروبيين معاملة الأكثر رعاية) ملغاة، وتُعامل تركيا معاملة مالية سخية لمساعدتها على انعاش اقتصادها. لقد اختلفت الشروط التي عرضها لويد جورج بطريقتين هامتين عن تلك التي ارتأتها حكومة اسكويث السابقة: فرنسا وايطاليا وروسيا لن تنال شيئاً، وبريطانيا ستنال فلسطين وبلاد الرافدين.

تشير تقارير زاخاروف ـ التي يصعب الحكم على مدى الصدق فيها ـ إلى ان أنور، بعد تبدلات زئبقية في التفكير والمزاج، لم يقبل العرض الذي قدمه لويد جورج، ولا يبدو انه كانت لديه النية جدياً على الاطلاق ان يقبل العرض. ولكن التعليمات التي تلقاها زاخاروف تكشف نيات لويد جورج إزاء الشرق الأوسط.

(٣)

في جلسة سرية عقدها مجلس العموم البريطاني في ١٠ أيار (مايو) ١٩١٧، فاجأ رئيس الوزراء

(١٤) المرجع نفسه، ص ١٠٨.

(١٥) لندن. مكتب سجلات مجلس اللوردات. مجموعة بيفربروك. أوراق لويد جورج. ف. ـ ٦ ـ ١. الوثائق من ١ إلى ١٦ (ب).

حتى أحد معاونيه المقربين عندما قال، دون أي لبس، ان بريطانيا لن تتخلى عن المستعمرات الالمانية في افريقيا المستولى عليها في الحرب، ولن تسمح لتركيا بأن تحتفظ بفلسطين أو بلاد الرافدين[١٦]. كانت لدى لويد جورج أفكار محددة بشأن مستقبل الأراضي العثمانية المحررة، ولكن لا أحد من زملائه كان مطلعاً عليها. فهو قد تجنب القنوات الرسمية ولم يطلع أحداً عليها بتفاصيلها سوى في مجرى مفاوضاته السرية مع أنور باشا. ومن هنا أهمية ما تكشفه.

كان في نية رئيس الوزراء ان ينكر على فرنسا الوضع الذي كان سير مارك سايكس قد وعدها به في الشرق الأوسط بعد الحرب، ورأى ان اتفاقية سايكس ـ بيكو ليست ذات أهمية، وكل ما يهم هو الحيازة الفعلية. وفي ما يخص فلسطين فقد أبلغ السفير البريطاني لدى فرنسا في نيسان (ابريل) ١٩١٧ ان الفرنسيين سيجبرون على قبول أمر واقع: «سنكون هناك بقوة الفتح وسنبقى»[١٧].

كان لويد جورج الرجل الوحيد في حكومته الذي أراد دائماً استيلاء بريطانيا على فلسطين. وأراد أيضاً ان يشجع قيام وطن قومي يهودي في فلسطين. وعجز زملاؤه عن معرفة مدى شدة تمسكه بهذه الآراء.

كانت لمعتقدات لويد جورج خلفية يجهلها زملاؤه إلى حد كبير. فهو، خلافاً لاِسكويث وأعضاء مجلس الوزراء الآخرين، لم يدرس في مدرسة خاصة من المدارس البريطانية التي تشدّد على تعليم اليونانية واللاتينية وآدابهما القديمة. لقد تربى على دراسة الكتاب المقدس. وكثيراً ما ذكر ان أسماء الأماكن الواردة في الكتاب المقدس يعرفها بأفضل مما يعرف أسماء المعارك والحدود المتنازع عليها في الحرب الأوروبية. وكان في حديثه عن هذه الأماكن يعبر عن نفسه بحرارة. وقد كتب في ما بعد في مذكراته انه كان قد اعترض على تقسيم فلسطين وفقاً لاتفاقية سايكس ـ بيكو (معظم فلسطين من نصيب فرنسا أو من حصة المنطقة الدولية) لأن هذا التقسيم يشوه البلد. وقال إن الأمر لا يستأهل كسب الأرض المقدسة لمجرد «تحطيمها إلى أجزاء أمام الرب»[١٨]. وأكد «ان فلسطين، في حال استعادتها، يجب ان تكون واحدة غير قابلة للتقسيم من أجل تجديد عظمتها ككيان حي»[١٩].

(٤)

وخلافاً لزملائه كان يعرف معرفة أكيدة وجود اتجاهات عمرها قرون في فكر اتباع الكنيسة

---

(١٦) جيلبرت، تشرشل: المجلد المرافق، ص ٦٠.

(١٧) ايلي كدوري، في المتاهة الانكليزية ـ العربية: مراسلات مكماهون ـ الحسين ومترجموها ١٩١٤ ـ ١٩٣٩ (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٧٦)، ص ١٥٩.

(١٨) ديفيد لويد جورج، مذكرات مؤتمر الصلح (نيوهاتن: مطبعة جامعة ييل، ١٩٣٩)، المجلد ٢ ص ٧٢١.

(١٩) المرجع نفسه، ص ٧٢٢.

الانجيلية والمنشقين عن الكنيسة البروتستانتية، نحو تقدم الصفوف لإعادة اليهود إلى صهيون. وحقيقة الأمر ان هذه الاتجاهات شكلت خلفية عقيدته الانشقاقية عن الكنيسة. وكان هو الأحدث في سلسلة طويلة من الصهاينة المسيحيين في بريطانيا، وتعود هذه السلسلة في بدايتها إلى البيوراتنيين (الصفويين) البروتستانت وإلى العصر الذي أبحرت فيه السفينة ميفلاور في طريقها إلى العالم الجديد. لقد كانت الأراضي الموعودة تخطر في البال كثيراً في تلك الأيام، سواء في الولايات المتحدة أو في فلسطين.

في منتصف القرن السابع عشر، تقدم اثنان من البيوريتانيين الانكليز يقيمان في هولندا ـ جوان وابن عيزر كارترايت ـ بنداء إلى حكومتهما قالا فيه: «إن هذه الأمة الانكليزية وسكان هولندا، سيكونون الأوائل والأكثر استعداداً لنقل أبناء وبنات اسرائيل في سفنهم إلى الأرض التي وُعد بها أجدادهم ابراهيم واسحق ويعقوب لتكون ميراثاً أبدياً»[20]. كان البيوريتانيون، مسترشدين بأسفار التوراة، يعتقدون ان مجيء المسيح المخلص سيكون عندما يعاد أبناء يهودا إلى موطنهم الأصلي.

عادت الفكرة إلى الظهور: في منتصف القرن التاسع عشر، أصبح المصلح الاجتماعي انطوني كوبر، والذي صار ايرل اوف شافتسبوري، مصدر الهام لحركة انجيلية قوية داخل كنيسة انكلترا، هدفها اعادة اليهود إلى فلسطين، وادخالهم الديانة المسيحية وتسريع «المجيء الثاني». وأوحى شافتسبوري أيضاً إلى بالمرستون، وزير الخارجية وقريبه عن طريق المصاهرة، بتوفير الحماية القنصلية البريطانية لليهود في فلسطين: لقد كتب شافتسبوري في مفكرته اليومية «ان الله اختار بالمرستون ليكون أداة خير لشعبه القديم»[21].

تصرف بالمرستون بدافع مزيج من الأسباب المتعلقة بالمثل العليا والأسباب العملية التي لا تختلف عن الأسباب التي كانت حافز لويد جورج في القرن العشرين. كان بالمرستون يلح على الامبراطورية العثمانية لإقامة فلسطين يهودية في سياق التنافس مع فرنسا خلال اللعبة الكبرى، وفي زمن من الثلاثينيات والأربعينيات في القرن التاسع عشر، كان فيه نائب السلطان المتمرد في مصر، محمد علي، بدعم من فرنسا، قد زحف من مصر على سورية لتهديد وحدة أراضي الامبراطورية وتهديد عرش السلطان. وكالعادة، ساند بالمرستون القضية العثمانية. كانت إحدى غاياته من الدعوة إلى فلسطين يهودية ان يعزز النظام العثماني بتوفير الدعم اليهودي له. وكان من غاياته الأخرى إحباط خطة الفرنسيين ورجلهم محمد علي بوضع وطن قومي يهودي تسانده بريطانيا على طريق زحفهم بغية إيقاف تقدم الزحف. وثمة غاية أخرى هي إيجاد جهة صنيعة لبريطانيا في الشرق الأوسط تهيىء لها عذراً للتدخل في الشؤون العثمانية. فالروس،

(٢٠) بربارة و. توشمان، **الكتاب المقدس والسيف: انكلترا وفلسطين من العصر البرونزي إلى بلفور** (نيويورك: فنك وواغنالز، ١٩٥٦)، ص ١٢١.

(٢١) رونالد ساندرز، **أسوار القدس العالية: تاريخ اعلان بلفور ونشوء الانتداب البريطاني على فلسطين** (نيويورك: هولت وراينهارت ووِنستون، ١٩٨٣)، ص ٥.

بصفتهم حماة المذهب الارثوذكسي، والفرنسيون باعتبارهم حماة الطائفة المارونية الهامة ذات الموقع الاستراتيجي في لبنان، كانتا تدعيان حق تمثيل مصالح وجماعات شرق أوسطية هامة. ونظراً لقلة عدد البروتستانت في المنطقة كان على بريطانيا ان تتبنى جماعة أخرى لتتمكن من ادعاء حق مماثل.

وأثبتت فكرة بالمرستون المتعلقة بإعادة أرض الميعاد إلى الشعب اليهودي انها أيضاً سياسة داخلية ذكية. فقد ضربت على وتر حساس في الرأي العام البريطاني يعود إلى الحماسة البيوريتانية(*). ويقول أحد الثقاة في معرفة دبلوماسية بالمرستون، ان سياسته أصبحت على صلة بفكرة صوفية لم تغب غياباً تاماً في القرن التاسع عشر، مفادها ان بريطانيا يجب ان تكون أداة الله في اعادة اليهود إلى الأرض المقدسة»[٢٢]. وهذه الفكرة تعايشت بشكل ما، على أقل تقدير في الطبقات البريطانية العليا، مع معاداة السامية المنتشرة انتشاراً واسعاً.

في عام ١٩١٤ بدا وكأن دخول الامبراطورية العثمانية الحرب قد أوجد الظروف السياسية التي يمكن من خلالها أخيراً تحقيق الحلم الصهيوني. فقد تساءل الكاتب هـ. ج. ولز في رسالة مفتوحة كتبها لحظة دخول تركيا الحرب «ما المانع من ان يأخذ اليهود فلسطين ويعيدوا يهودا الحقيقية؟».

بعد ذلك بوقت قصير خطرت فكرة مماثلة في ذهن سير هيربرت صامويل، مدير البريد العام في وزارة اسكويث، وأحد زعماء حزب الأحرار، وأول شخص من العقيدة اليهودية يكون عضواً في مجلس الوزراء البريطاني. فقد أرسل في كانون الثاني (يناير) ١٩١٥ مذكرة إلى رئيس الوزراء اسكويث مقترحاً أن تصبح فلسطين محمية بريطانية ـ لأنها ذات أهمية استراتيجية للامبراطورية البريطانية ـ ومؤكداً فوائد تشجيع الاستيطان اليهودي على نطاق واسع فيها. وكان رئيس الوزراء قد أنهى لتوه قراءة (تانكريد) ـ وهي رواية من تأليف بنيامين دزرائيلي، الزعيم البريطاني في القرن التاسع عشر (الذي تنصّر ولكنه ولد لأسرة يهودية)، وكان يدعو لعودة اليهود إلى فلسطين ـ وقد أسرّ اسكويث لبعضهم ان مذكرة صامويل «تكاد تكون طبعة جديدة من رواية (تانكرد) مع تغطية الأحداث حتى الوقت الحاضر. واعترف بأنه لا يشعر بالميل إلى هذه الاضافة المقترحة إلى مسؤولياتنا. ولكن المذكرة تصور تصويراً عجيباً مقولة دزرائيلي الأثيرة على نفسه ان [العرق البشري هو كل شيء] وها نحن نرى ان هذا التصوير العجيب والذي يكاد يكون بأسلوب شاعري إنما يتدفق من عقل هيربرت صامويل المنظم والمنهجي»[٢٣].

(*) كانت هذه رؤيا ألهمت أيضاً دعاة المثالية العلمانيين أيضاً. ان جورج اليوت، في روايتها دانييل ريوندا، اقترحت برنامجاً صهيونياً.

(٢٢) سير تشارلز ويبستر، **سياسة بالمرستون الخارجية ١٨٣٠ ـ ١٨٤١: بريطانيا والحركة الليبرالية والمسالة الشرقية** (نيويورك: مطبعة هيومانيتين، ١٩٦٩)، المجلد ٢ ص ٧٦١. انظر أيضاً ليونارد سيتن، **اعلان بلفور** (لندن: فالنتاين ميتشل، ١٩٦١)، الصفحات ٥ ـ ٩، وكذلك توشمان، **الكتاب المقدس والسيف**، الصفحات ٨٠ ـ ٢٢٤.

(٢٣) هـ. هـ. اسكويث، **رسائل إلى فنيشيا ستانلي**، أعدها للطباعة مايكل واليانور بروك (اوكسفورد ونيويورك: =

في شهر آذار (مارس) ١٩١٥ وزّعت على مجلس الوزراء صيغة منقحة لمذكرة صامويل. ولكنها لم تحظ بالتأييد وكان تعقيب اسكويث الخاص عليها ان «من الغريب ان النصير الآخر الوحيد لهذا الاقتراح هو لويد جورج الذي، لا حاجة بي إلى القول، لا يهتم أدنى اهتمام باليهود ولا بماضيهم ولا بمستقبلهم...»[٢٤] ولم يكن رئيس الوزراء على دراية بمجموعة الدوافع وراء الموقف الذي اتخذه لويد جورج، الذي أبلغ مجلس الوزراء ان السماح بسقوط الأماكن المقدسة المسيحية في يد «فرنسا الملحدة العلمانية»[٢٥] هو أمر فظيع. وقد رأى اسكويث غرابة في ان يدعو هيربرت صامويل ولويد جورج إلى جعل فلسطين محمية بريطانية لمثل هذه الأسباب المختلفة: «أليس أمراً فريداً ان يكون بالامكان التوصل إلى النتيجة نفسها بواسطة مثل هاتين الطريقتين المختلفتين؟[٢٦]» لقد كان في هذه الملاحظة شيء من التنبؤ بالمستقبل، لأن المسؤولين البريطانيين الذين سلكوا في السنين التالية عدة طرق مختلفة، قد توصلوا إلى استنتاج واحد: هذا الاستنتاج هو ان إحدى الخصائص المميزة لسياسة بريطانيا التي لا تستقر على حال تجاه فلسطين هي انه ليس هناك سبب واحد فرد لهذه السياسة.

لقد ألقى كيتشنر بوزن سلطته الكبير ضد اقتراح صامويل. فقد قال لمجلس الوزراء ان فلسطين ذات قيمة ضئيلة من الناحية الاستراتيجية أو سواها، وليس فيها مرفأ واحد لائق[٢٧]. ولذلك لم يأخذ مجلس الوزراء باقتراح صامويل، ولكن لويد جورج ظل يخالف كيتشنر الرأي في أهمية فلسطين الاستراتيجية.

(٥)

مع ان لويد جورج ينتمي إلى عائلة من ويلز، فقد ولد في مدينة مانشستر، ثانية كبرى المدن البريطانية وموطن الليبرالية الراديكالية التي استمر يدعمها طوال جانب كبير من حياته السياسية. وكانت مانشستر أيضاً، بعد لندن، موطن أكبر جالية يهودية في بريطانيا. وكان أعضاء البرلمان الذين يمثلون المنطقة، مثل بلفور وتشرشل مدركين لاهتمامات اليهود الخاصة في منطقتهم الانتخابية.

إن ك. سكوت، رئيس تحرير صحيفة «مانشستر غارديان» الليبرالية الكبيرة، اعتنق الصهيونية في ١٩١٤ على يد حاييم وايزمان، العالم الكيميائي اليهودي الروسي الأصل الذي استقر في مانشستر. وكان سكوت يُعتبر موضع ثقة لويد جورج وأقرب المقربين إليه سياسياً، وقد تبنى القضية بكل ما عرف عن طبيعته المثالية من عزم. ورأى المراسل العسكري لصحيفة

= مطبعة جامعة اوكسفورد، ١٩٨٢)، ص ٤٠٦.

(٢٤) المرجع نفسه، ص ٤٧٧.

(٢٥) المرجع نفسه.

(٢٦) المرجع نفسه.

(٢٧) المرجع نفسه، الصفحتان ٤٧٧ ـ ٤٧٨.

«الغارديان»، والذي يدعى هيربرت سايدبوثام، جانباً مكملاً للمسألة يتمثل في الفائدة العسكرية لبريطانيا. فقد كتب في عدد الصحيفة الصادر في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٥ «ان مستقبل الامبراطورية البريطانية كله بصفتها امبراطورية بحرية» يعتمد على جعل فلسطين دولة عازلة يسكنها «عرق من البشر شديد الوطنية»[٢٨].

لقد تحقق تحول جريدة «مانشستر غارديان» إلى الصهيونية في سياق الحرب العالمية الأولى، أما لويد جورج فقد انتقل إلى الصهيونية ـ أو بالأحرى انتقلت الصهيونية إليه ـ قبل ذلك بعشر سنوات. ففي عام ١٩٠٣ عمل محامياً بريطانياً للحركة الصهيونية ولمؤسسها، الدكتور ثيودور هرتزل، بشأن موضوع تسبب في انشقاق ممض في صفوف الحركة الصهيونية، وهو: هل يجب ان تكون الدولة اليهودية بالضرورة في فلسطين. وباعتباره كان يمثل هيرتزل في لحظة اتخاذ القرار، فقد كان في وضع يمكنه من فهم الورطة التي تواجهها الحركة الصهيونية.

كانت الحركة الصهيونية حديثة العهد، أما جذورها فكانت قديمة قدم مملكة يهودا التي قوّضت استقلالها ثم سحقتها روما القديمة، وتشرد معظم سكانها في أراضٍ أجنبية في القرن الثاني للميلاد. ولكن أبناء يهودا ـ أي اليهود كما عرفوا في ما بعد ـ ظلوا حتى أثناء وجودهم في النفي متشبثين بديانتهم وبقوانينهم وعاداتهم التي تميزهم، وعزلوا أنفسهم عن الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيها. إن وضعهم في مرتبة دنيا، والاضطهادات التي تعرضوا لها والمجازر العديدة التي حلّت بهم وتكرار طردهم من بلد إلى آخر، قد عزز شعورهم بهويتهم الخاصة ومصيرهم الخاص. في نهاية الأمر ـ وفقاً لتعاليمهم الدينية ـ سيعيدهم الله إلى صهيون، ولذلك كانوا خلال احتفائهم بعيد فصحهم كل سنة يرددون الابتهال «السنة القادمة في أورشليم».

العودة المستقبلية إلى صهيون ظلت مجرد رؤيا خلاصية إلى ان حولتها ايديولوجية أوروبا القرن التاسع عشر إلى برنامج سياسي معاصر. كانت إحدى الأفكار المعبرة عن ذلك الزمن ـ وهي فكرة غرستها في كل مكان جيوش الثورة الفرنسية فأينعت وازدهرت ـ هي ان كل أمة ينبغي ان يكون لها بلد مستقل (مع ان مفهوم الأمة وما الذي يشكل أمة كان بطبيعة الحال مسألة قابلة للنقاش). كان الثوري الايطالي جيزيبي ماتزيني، أبرز الدعاة إلى هذه العقيدة التي بموجبها يجب اطلاق الحرية لكل أمة كي تحقق نبوغها الذي تتفرد به وتتابع رسالتها الخاصة في خدمة البشرية. وهكذا فإن قومية كل أمة لا تخدم مصالحها الخاصة فحسب، بل مصالح جيرانها أيضاً. وخدمة لهذه العقيدة ناضل جيزيبي غاريبالدي زميل ماتزيني ـ وأعظم أبطال إيطاليا ـ من أجل الاوروغواي وفرنسا مثلما ناضل من أجل إيطاليا.

كان نقيض هذا الطرح أن أحد الأسباب الأساسية للعلل التي يعاني منها العالم ان بعض الأمم قد حيل دون تحقيق وحدتها أو استقلالها ـ وهو وضع رأى ماتزيني وأتباعه وجوب تغييره عن

(٢٨) اشعيا فريدمان، **مسالة فلسطين، ١٩١٤ ـ ١٩١٨، العلاقات البريطانية ـ اليهودية ـ العربية** (لندن: روتلدج وكيغان بول، ١٩٧٣)، ص ١٢٩.

طريق الحرب أو الثورة. وبرنامجهم هذا خطفه اليمين من اليسار ـ فإيطاليا والمانيا أصبحتا بلدين موحدين على يد (كافور) في ايطاليا و (بسمارك) في المانيا ـ وأصبح هذا البرنامج موضوعاً من مواضيع البحث السياسي المشترك في أوروبا. وتقدمت القومية خطوة أخرى في الحرب الأهلية السويسرية (١٨٤٧) والحرب الأهلية الأميركية (١٨٦١ ـ ١٨٦٥) عندما حاولت سبعة كانتونات سويسرية متحدة اتحاداً كونفيدرالياً، وإحدى عشرة ولاية أميركية متحدة اتحاداً كونفيدرالياً ان تنفصل ـ فسحقتها جيوش الحكومة الفيدرالية في الحالتين. وهكذا كان على الشعوب ان تتوحد في أمة واحدة، شاءت أم أبت.

كان هذا يدل على ان القومية الجديدة قد يكون لها جانب مظلم: هو عدم التسامح إزاء مجموعات تختلف عن الأكثرية. وهذا ما واجهه اليهود في الحال. ففي البيئة الوطنية لأوروبا الغربية اتخذت المسألة اليهودية اشكالاً جديدة: هل يهود المانيا المان؟ وهل يهود فرنسا فرنسيون؟ فإن كانوا كذلك ماذا عن هويتهم الخاصة؟ مع نهاية القرن التاسع عشر كان يهود أوروبا الغربية قد حققوا الانعتاق القانوني من كثير من القيود التي فرضت عليهم على مدى قرون، فأصبح بإمكانهم الخروج من الغيتوات التي كانوا يقيمون فيها، وان يمارسوا المهنة أو الحرفة التي يريدون حسب اختيارهم، وان يشتروا الأرض، وان يتمتعوا بحقوق المواطنية ـ ولكنهم ظلوا يواجهون موجة عداء من جيرانهم الذين اعتبروهم غرباء.

كان وضع اليهود خطراً للغاية في أوروبا الشرقية ـ الامبراطورية الروسية ومن ضمنها بولندا، وبلدان البلطيق واوكرانيا ـ كان معظم يهود العالم يعيش داخل ذلك القسم من الامبراطورية الروسية، وقد حددت اقامتهم فيه ماداموا يعيشون ضمن ممتلكات قيصر روسيا: أي ضمن «الحظيرة» ـ وقلة منهم فقط ـ البعض بصورة غير شرعية والبعض الآخر بإذن خاص ـ كانت تعيش في سانت بيترسبورغ أو موسكو أو أي مكان آخر خارج «الحظيرة». وكان ضمن هذه «الحظيرة» ستة ملايين من اليهود هم يهود روسيون لم يكن مسموحاً لهم ان يكونوا روسيين يهوداً. لم يكونوا مقيدين بقيود قانونية بل كانوا ضحية المجازر المنظمة التي يطلق عليها اسم (بوغروم). وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين تزايدت فظاعة هذه المجازر فهرب اليهود بأعداد كبيرة من الامبراطورية الروسية طلباً للنجاة والملجأ.

وبما ان القومية كانت آنذاك العلاج الشافي للعلل السياسية جميعها، فقد كان أمراً محتوماً ان يقترح أحد ما القومية كعلاج للمشكلة اليهودية. والحقيقة ان الوحدة القومية وتقرير المصير ضمن كومنولث يهودي مستقل قد طرحا في كتب بليغة التعبير، توصل مؤلفوها إلى استنتاجاتهم بصورة مستقلة(*). إذاً لم يكن ثيودور هيرتزل أول من صاغ مثل هذا البرنامج، بل كان أول من

(*) من هذه الكتب كتاب موزيس هيس وعنوانه، **روما والقدس** (١٨٦٢)، وكتاب ليو بنسكر وعنوانه، **الانعتاق الذاتي** (١٨٨٢).

أعـطاه تعبـيراً سيـاسياً ملموساً، في زمن كان فيه الرواد اليهود من روسيا قد بدأوا يقيمون مستعمرات في فلسطين دون ان ينتظروا تسوية الأمور السياسية.

وعندما جاء هيرتزل، وهو يهودي اندمج في مجتمعه الجديد، بفكرة الصهيونية السياسية، كان يرى ان اليهود بحاجة إلى دولة يهودية خاصة بهم ـ أما موقعها فلم يكن ذا أهمية أولى. وكان هيرتزل يكاد لا يفقه شيئاً عن اليهود واليهودية. ذلك انه كان صحفياً عصرياً، مراسلاً في باريس لإحدى صحف فيينا نسي أصوله اليهودية إلى ان حدثت صدمة العداء للسامية في فرنسا في قضية دريفوس فأقنعته بالحاجة إلى إنقاذ يهود العالم من محنتهم التاريخية.

وباعتباره رجلاً دنيوياً فقد كان على دراية بكيفية عقد صفقات العمل السياسي في أوروبا زمانه، ومن ثم شرع في إنشاء منظمة صهيونية. ثم انه بدأ مفاوضات باسم الصهيونية مع مسؤولي حكومات مختلفة. ولم يدرك الجاذبية الفريدة التي تتمتع بها البلاد التي تدعى فلسطين ـ أرض الفلسطينيين ـ والتي يسميها اليهود أرض اسرائيل، إلّا بعد ان بدأ يجري اتصالات عمل مع يهود آخرين ومع منظمات يهودية كانت على مدى سنوات سابقة تشجع إقامة مستوطنات في الأرض المقدسة.

عند بدء القرن العشرين أجرى هيرتزل مفاوضات مع الامبراطورية العثمانية فاقتنع بنتيجتها بأن السلطان لن يوافق على المقترحات الصهيونية ـ على أقل تقدير في الوقت الراهن. وهكذا بدأ يبحث في أمـاكن أخـرى. وفي عام ١٩٠٢ عقـد اجتماعاً هاماً مع جوزيف تشامبرلين، وزير المستعمـرات القـوي في حكـومتي سالزبـوري وبلفور. كان تشامبرلين يعتبر أباً للامبريالية البريطانية الحديثة، وكان يؤمن أيضاً بحل قومي للمشكلة اليهودية، وقد أصغى متعاطفاً إلى اقتراح هيرتزل الذي له أصل سابق يتمثل في إقامة تجمع سكاني سياسي يهودي، أول الأمر في مكان قريب من حدود فلسطين على أمل ان تكون فلسطين في متناول اليد بشكل أو بآخر في نهاية الأمر. وكان هرتزل يتحدث وفي ذهنه إما قبرص أو قطاع العريش على حدود شبه جزيرة سيناء المحـاذيـة لفلسـطين، وكلتا المنطقتين كانتا اسمياً جزئين من الامبراطورية العثمانية وواقعياً محتلتين من قبل بريطانيا. وقد استبعد تشامبرلين قبرص ولكنه عرض ان يساعد هيرتزل في الحصول على موافقة المسؤولين البريطانيين المشرفين على شؤون سيناء.

ومن أجل الحصول على هذه الموافقة قرر هيرتزل عبر ممثله البريطاني ليوبولد غرينبيرغ ان يستعين بخدمات محام ذي اطلاع واسع سياسياً، فوقع اختياره على ديفيد لويد جورج، الذي تولى القضية باسم شركته اللندنية، شركة لويد جورج وروبرتز وشركاهما. ولكن الاقتراح أخفق بنتيجة معارضة الإدارة البريطانية في مصر، فأرسلت وزارة الخارجية البريطانية رسالتين إلى الدكتور هيرتزل بتاريخ ١٩ حزيران (يونيو) و١٦ تموز (يوليو) ١٩٠٣، تبلغه فيهما ان اقتراحه غير عملي.

عندئذٍ قال تشامبرلين انه يستطيع ان يعرض منطقة للاستيطان اليهودي تخضع لسلطة وزارته، فطرح امكانية الاستيطان في أوغندا في شرق افريقيا البريطانية. وقد أيّد آرثر جميس بلفور،

رئيس الوزراء اقتراح تشامبرلين. وكان بلفور قد أولى المسألة اليهودية الكثير من تفكيره واستنتج انها تتطلب حلاً قومياً. وقد وافق هيرتزل على اقتراح أوغندا، وبناء على ذلك أعدّ لويد جورج مسودة براءة للاستيطان اليهودي وعرضها رسمياً على الحكومة البريطانية لإقرارها. وفي صيف عام ١٩٠٣ أجابت وزارة الخارجية البريطانية بتحفظ ولكن بإيجابية قائلة انه في حال نجاح الدراسات والمحادثات خلال السنة التالية، ستنظر حكومة جلالته نظرة ايجابية في المقترحات الهادفة إلى انشاء مستعمرة يهودية. كان ذلك أول بيان رسمي صادر عن حكومة ما إلى الحركة الصهيونية، وأول بيان رسمي يقول بصورة ضمنية بإعطاء وضع قومي للشعب اليهودي[٢٩]، أي انه كان إعلان بلفور الأول.

انعقد بعيد ذلك اجتماع للمؤتمر الصهيوني العالمي، وفي هذا الاجتماع طرح هيرتزل اقتراح أوغندا، وحث على الاستيطان في شرق افريقيا كمحطة على الطريق، وكملجأ على الدرب إلى أرض الميعاد، حيث يستطيع يهود الامبراطورية القيصرية النجاة من فظائع المجازر. ومع ان المندوبين في الاجتماع أتاحوا لزعيمهم ان يحصل على تصويت بالموافقة، فإن معظمهم لم يبد أي اهتمام بأية أرض أخرى سوى أرض أسلافهم. ووجدت الحركة الصهيونية نفسها في نهاية طريق مسدود: لم يعرف هيرتزل كيف يقود الحركة إلى فلسطين، ولم ترغب الحركة في ان تتجه إلى أي مكان آخر. وقد مات هيرتزل في صيف عام ١٩٠٤ مخلفاً زعامة مفككة ومنقسمة على نفسها انقساماً عميقاً.

عاد لويد جورج في عام ١٩٠٦، أثر تشكيل حكومة ليبرالية جديدة في بريطانيا، فطرح اقتراح سيناء للدراسة بتحريض من ليوبولد غرينبورغ. ومرة أخرى رفضت الحكومة البريطانية الاقتراح، وكتب سير ادوارد غراي بتاريخ ٢٠ آذار (مارس) ١٩٠٦ قائلاً: ان موقف وزارة الخارجية لم يتغير[٣٠].

عندما كانت الحركة الصهيونية في سنوات تشكلها كان يمثلها ديفيد لويد جورج في وقت كانت تسعى فيه لإعطاء تعريف لنفسها. ولم تكن الحركة الصهيونية إلاّ زبوناً واحداً من زبائنه الكثر ـ ولم تكن من هذه الناحية زبوناً كبيراً ـ مع ذلك، ونتيجة لتمثيله المهني لها، لم يكن أي زعيم سياسي بريطاني آخر في وضع أفضل من وضعه لفهم طبيعتها وأهدافها. وعندما راودته فكرة فتح فلسطين في عام ١٩١٧ وعام »١٩١٨، لم يكن أحد يملك فكرة أوضح من فكرته عما يجب ان يفعله بفلسطين إذا ما أصبحت تحت سيطرته.

لقد أراد لويد جورج، شأنه شأن وودرو ويلسون، الذي كان اهتمامه في الشرق الأوسط موجهاً إلى المدارس والإرساليات البروتستانتية الأميركية، ان تتولى بلاده ما كان يعتبره عمل الرب في

---

(٢٩) الكس بين، **تيودور هرتزل: سيرة حياته**، مترجمة من قبل موريس صامويل (فيلادلفيا: جمعية النشر اليهودية في اميركا، ١٩٤١)، ص ٤١١ وما يليها.

(٣٠) لندن مكتب سجلات مجلس اللوردات. مجموعة بيفربروك، أوراق لويد جورج. غ. ـ ٣٣ ـ ١. الوثائق من ١٤ ـ ١٦.

المنطقة. ولكنه، خلافاً للرئيس الأميركي، كان يخطط لزيادة عظمة امبراطورية بلاده بواسطة القيام بعمل الرب.

لقد تابع لويد جورج نهجه الفكري حتى انتهى إلى الاستنتاج انه يجب على بريطانيا ان ترعى القومية اليهودية في الشرق الأوسط بعد الحرب. وقد توصل عدد من زملائه في الحكومة البريطانية إلى الاستنتاج نفسه في عام ١٩١٧، ولكن بالسير على طرق مختلفة ـ وطرق كثيرة أدت إلى صهيون. الغريب في الأمر هو انهم بعد ان أيدوا الشريف حسين نتيجة أفكار خاطئة عن العرب والمسلمين أوشكوا الآن على تأييد الصهيونية نتيجة أفكار خاطئة عن اليهود.

الفصل الثالث

في الطريق إلى إعلان بلفور

(١)

كان لويد جورج ـ وهو «ذو توجه شرقي» في استراتيجيته الحربية وفي أهـدافه الحربية ـ قد نجح في كسب التأييد لوجهة نظره من أعضاء الحكومة المدنيين الهامين، الذين بدأوا ينظرون إلى الشرق الأوسط عامة، وإلى فلسطين خاصة كمصـالح حيوية للامبراطورية، وتوصلوا جميعاً إلى الاستنتاج كل بطريقته الخاصة، إلى ان إقامة تحالف مع الصهيونية من شأنه ان يخدم احتياجات بريطانيا في الحرب والسلم.

لقد أقنع لويد جورج اللورد ميلنر وشركاءه بالأهمية الإستراتيجية للحرب في الشرق في شتاء عام ١٩١٧، أي في وقت لم يكن واضحاً بأي شكل من الأشكال هل سيتمكن الحلفاء من إحراز نصر حاسم هناك أو في أية منطقة اخرى. وحتى بعد ان دخلت الولايات المتحدة الحرب في ربيع ذلك العام، بدا ان من الممكن تماماً ألّا يصل الأميركيون في وقت مناسب للحيلولة دون عقد اتفاقية صلح عن طريق التفاوض، تبقي الأطراف المتحاربة بشكل أو بآخر في مواقعها. وكان هنالك أيضاً من شعروا بالقلق من ترك الألمان والأتراك يحتفظون بسيطرتهم على منطقة، أكد رئيس الوزراء البريطاني أهميتها الحيوية.

لقد أبدى مساعدا أميني السر في مجلس الوزراء الحربي، ليو ايميري ومارك سايكس، قلقهما من احتمال سقوط الامبراطورية العثمانية كلياً في قبضة المانيا في عالم ما بعد الحرب. وإذا ما حدث ذلك تكون الطريق إلى الهند قد وقعت في أيدٍ عدّوة ـ وهذا خطر لا تستطيع الامبراطورية البريطانية تفاديه إلّا بطرد الألمان والأتراك واستيلاء بريطانيا على الطرف الجنوبي للمتلكات العثمانية. وكان مجلس الوزراء البريطاني قد فكّر منذ البداية بضم بلاد الرافدين... وفي ما يتعلق بشبـه جزيرة العرب، فقد أعدّت ترتيبات متفق عليها مع الحكام المحليين الذين أكّدوا استقلاليتهم وبموجبها تدفع لهم إعانات، وبذلك يمكن الاعتماد على بقائهم موالين لبريطانيا. بقيت فلسطين نقطة الضعف الوحيدة. فهي باعتبارها جسراً يصل افريقيا بآسيا تقطع الطريق

البرية بين مصر والهند، كما انها بحكم قربها من قناة السويس تهدد القناة وبالتالي تهدد الطريق البحرية إلى الهند أيضاً.

كان ايميري الشخصية الرئيسة من بين أعوان ميلنر في الحكومة، وقد بحث المسألة في مذكرة رفعها إلى مجلس الوزراء بتاريخ ١١ نيسان (ابريل) ١٩١٧، فقال محذراً من السماح لألمانيا بتوجيه ضربة أخرى إلى بريطانيا عن طريق السيطرة على أوروبا أو الشرق الأوسط بعد الحرب «ان سيطرة المانيا على فلسطين هي أحد أعظم المخاطر التي يمكن ان تجابه الامبراطورية البريطانية في المستقبل»[(١)].

جرى تعيين ايميري ومارك سايكس، ومن بعد وليم اورمسبي ـ غور، مساعدين لموريس هانكي في رئاسة سكريتارية مجلس الوزراء الحربي. وبما ان ايميري كان عضواً في البرلمان وضابطاً في الجيش أدى خدمته في وزارة الحربية، فقد أصبح أحد أفراد المجموعة المركزية التي توجه المجهود الحربي. وعند توزيع المسؤوليات داخل جهاز السكريتاريا، لم يكن الشرق الأوسط في نطاق اختصاص ايميري بل كان في نطاق اختصاص سايكس. لكن ايميري كان قد أشرك نفسه في مسألة لها تأثير على السياسة الشرق أوسطية عندما مد يد المساعدة إلى صديق قديم.

والصديق القديم هو الكولونيل جون هنري باترسون، وهو ضابط في الجيش تعرّف إليه ايميري في جنوب افريقيا، وقد تولى هذا الضابط قيادة فيلق يهودي في حملة غاليبولي، وقد طلب إلى ايميري ان يساعده في الحصول على اذن من وزارة الحربية بإنشاء كتيبة من اليهود غير البريطانيين للقتال تحت قيادة بريطانية، على ان ترسل هذه الكتيبة للقتال في فلسطين عندما تغزو بريطانيا الامبرطورية العثمانية من مصر وعبر سيناء. كان باترسون ايرلندياً بروتستانتياً، ومتبحراً في الكتاب المقدس، وضابطاً محترفاً في الجيش وهاوياً لصيد الأسود، ونال شهرة بسبب كتابه الذائع الصيت «أكلة البشر في تسافو» كما اشتهر بروح المغامرة التي يتصف بها القراصنة. وقد جاءته فكرة انشاء كتيبة يهودية من فلاديمير جابوتنسكي، وهو صحفي يهودي روسي حاد الطبع، كان يعتقد ان الانكليز يمقتون ان يروا في بلادهم عدداً كبيراً من المهاجرين اليهود الروس الأقوياء الأجسام والذين لم يصبحوا بعد رعايا بريطانيين ولا يؤدون الخدمة العسكرية. وقد كان جابوتنسكي مأخوذاً بفكرة ان الكتيبة العسكرية اليهودية إذا ساعدت في تحرير فلسطين، تقطع شوطاً كبيراً نحو تحويل الحلم الصهيوني إلى واقع، غير انه لم يبح بذلك أول الأمر[(٢)]. وتحمس باترسون للفكرة، فالفيلق اليهودي الذي قاده في غاليبولي أُنشىء إلى حد

(١) اشعيا فريدمان، **مسألة فلسطين**، ١٩١٤ ـ ١٩١٨، **العلاقات البريطانية ـ اليهودية ـ العربية** (لندن: روتلدج وكيغان بول، ١٩٧٣)، ص ١٢٣.

(٢) فلاديمير جابوتنسكي، **قصة الفيلق اليهودي**، مترجمة من قبل صامويل كاتز (نيويورك: بيرنارد اكرمان، ١٩٤٥)، صم ٣١.

كبير بجهود شريك جابوتنسكي، الكابتن جوزيف ترامبلدور، وقد استمتع باترسون بقيادة الفيلق[٣].

وافق ايميري على مساعدة باترسون، ولكن المهمة لم تكن سهلة. فزعماء الجالية اليهودية الرسميون عارضوا المشروع معارضة شديدة، لأنه في نظرهم يعرض للخطر اليهود الذين يعيشون في الامبراطورية الالمانية وامبراطورية النمسا ـ هنغاريا والامبراطورية العثمانية، إذ سيوحي المشروع ان اليهود كيهود ينحازون للحلفاء.، ومع ان القيادة الصهيونية كانت على خلاف مع الجالية اليهودية البريطانية في معظم الأمور الأخرى، فقد انضمت إليها في استنكار ربط القضية الصهيونية بإحدى التحالفات الأوروبية المتحاربة. وعندما أثار جابوتنسكي الموضوع لأول مرة في عام ١٩١٥ رأت السلطات البريطانية ان اقتراحه أن تساعد الكتيبة اليهودية في تحرير فلسطين هو اقتراح ضئيل الجدوى. فقد قال أحد كبار المسؤولين: «لا أحد يعرف بعد متى سنذهب إلى فلسطين واللورد كتشنر يقول إننا لن نذهب إطلاقاً»[٤].

ثابر ايميري طوال عامي ١٩١٦ و١٩١٧ فنجح في وضع طلب جابوتنسكي أمام مجلس الوزراء الحربي. بعد ذلك أخذت الحكومة البريطانية تتفاوض مع الحكومات الحليفة الأخرى بشأن اتفاق يسمح لكل بلد ان يقبل في الخدمة العسكرية مواطنين من البلدان الحليفة الأخرى مقيمين على أرضه. بعبارة أخرى، صار بإمكان اليهود الروس الذين يعيشون في بريطانيا ان ينضموا إلى الجيش البريطاني. وقد أقر البرلمان هذا الاتفاق، وفي صيف عام ١٩١٧ شُكِّلت وحدة يهودية «سُميت في ما بعد الفيلق اليهودي» ضمن الجيش البريطاني ووُضعت تحت قيادة الكولونيل باترسون. كان لويد جورج شديد الحماسة للمشروع فقال: قد يتمكن اليهود من مساعدتنا أكثر من العرب» في حملة فلسطين[٥].

لم يكن ايميري، قبل ان يحدثه زميله مارك سايكس عن الصهيونية، قد وضع اهتماماته الاستراتيجية بفلسطين وتأييده للفيلق اليهودي ضمن منظور واحد، مع ان ميوله العامة كانت نحو الصهيونية. لكن فكرة قيام كيان قومي يهودي كانت تجد سنداً لها في مكانة موجهه السياسي المُتوفى، جوزيف تشامبرلين، وكانت الفكرة تلقى أيضاً الرعاية من زعيمه اللورد ميلنر الذي بدأ تعاطفه مع الصهيونية في وقت مبكر من حياته. وكان ايميري نفسه يشعر بتعاطف مماثل. وقد كتب في ما بعد يقول: «في ما عدا الولايات المتحدة، ما من بلد سوى انكلترة الشغوفة بالكتاب المقدس والتي يغلب الكتاب المقدس على تفكيرها، يعتبر دائماً الرغبة في عودة اليهود إلى وطنهم

---

(٣) جوزف ب. شيشتمان، **المتمرد ورجل الدولة: قصة فلاديمير جابوتنسكي، السنوات الأولى** (نيويورك: توماس يوزلوف، ١٩٥٦)، الصفحات ٢٠٤ ـ ٢٠٧، ينسب القسط الرئيس من الفضل إلى ترومبلدور.

(٤) جابوتنسكي، **الفيلق اليهودي**، ص ٦٦.

(٥) رخوبدت، **اسرائيل. محفوظات وثائق وايزمان**. مذكرة اجتماع ٧ شباط ١٩١٧، روجر ادلسون، **مارك سايكس، لوحة هاو** (لندن: جوناثان كيب، ١٩٧٥)، ص ٢٢٦.

القديم إلهاماً طبيعياً لا يجوز التبرؤ منه»[٦].

عندما انضم وليم اورمسبي - غور إلى ايميري وسايكس بصفة أحد مساعدي أمناء السر الثلاثة في مجلس الوزراء الحربي، نقل معه إهتماماً أكثر تحديداً بالامكانيات المباشرة للفكرة الصهيونية. وكان أورمسبي - غور، باعتباره عضواً في البرلمان وسكرتيراً للورد ميلنر، قد ذهب إلى الشرق الأوسط للعمل في المكتب العربي. وأحد الذين كانوا تحت إمرته الشخصية شخص يدعى أهارون اهارونسون، قائد مجموعة شديدة الفعالية تعمل خلف الخطوط العثمانية في «فلسطين اليهودية» ومهمتها جمع معلومات للمخابرات عن تحركات القوات التركية. وقد تعرض اهارونسون مثلما تعرض جابوتنسكي، لحملة من بقية اليهود، لأنه أظهر مصالح اليهود كأنها مرتبطة بمصالح الحلفاء - وبذلك عرّض للخطر الجالية اليهودية في فلسطين، التي كان جمال باشا يجد ما يغريه بمعاملتها كمعاملة زملائه للأرمن. بيد ان المعلومات التي كان يجمعها أهارونسون عن الدفاعات والمواقع العسكرية التركية، أثبتت فائدتها الكبيرة للقيادة العسكرية البريطانية في مصر ولقيت التقدير من اورمسبي - غور.

كانت ثمة ناحية أخرى في حياة اهارونسون أُفتتن بها اورمسبي - غور، هي أبحاثه واختباراته الزراعية والتي شكّلت المجال الذي نال شهرته فيه. فقبل عقد من السنين اشترك اهارونسون في أبحاث أُجريت على العِرق الأصلي للقمح البري الذي ازدهر قبل آلاف السنين. ومنذ تلك السنين البعيدة أخذت حالة هذا النبات تزداد سوءاً بسبب تدجينه على نطاق واسع، وبذلك ازداد تعرضاً للأمراض النباتية. وقد أصبح انقاذ هذا الصنف من الغذاء الأساسي لسكان الأرض عن طريق العثور على نبتته الأصلية في الطبيعة، هدفاً رومانسياً يسعى وراءه اهارون اهارونسون ذو العينين الزرقاوين والشعر الأشقر. وفي ربيع عام ١٩٠٦ حقق اهارونسون اكتشاف العمر: فقد عثر على القمح البري يتلاعب به النسيم قرب سفح جبل حرمون، على مقربة من مستوطنة روشبينا اليهودية.

لقد أعجب اورمسبي - غور بالعمل الذي أنجزه اهارونسون في مركزه الخاص بالأبحاث الزراعية في فلسطين، لأن ذلك يدخل في صلب الحجة المدافعة عن الصهيونية. وكانت المرافعة ضد الصهيونية التي قام بها اللورد كورزون في مجلس الوزراء هي ان فلسطين أرض قاحلة لا يمكنها إعالة ملايين اليهود الذين يراودهم أمل الإستيطان فيها. وكانت حجة الجماعات العربية التي تقدمت بها في ما بعد، والتي قامت على ادعاء ان فلسطين لا تتسع لمستوطنين إضافيين، هي، كما كتب جورج انطونيوس أحد المتحدثين العرب البليغين: «إن فلسطين لا تتسع لأمة ثانية إلّا بانتزاع أو إبادة الأمة التي تملكها»[٧]. فجاءت اختبارات اهارونسون لتدحض هذه

---

(٦) ل. س. ايميري، **حياتي السياسية، المجلد ٢، الحرب والسلم، ١٩١٤ - ١٩٢٩** (لندن: هتشنسون، ١٩٥٣)، ص ١١٥.

(٧) جورج انطونيوس، **يقظة العرب: قصة الحركة القومية العربية** (نيويورك: كتب كابريكورن، ١٩٦٥)، ص ٤١٢.

الحجة(*). لقد أظهر عمله ان بالامكان توطين ملايين أخرى على أرض يمكن جعلها غنية وخصبة بأساليب الزراعة العلمية من دون تشريد أحد من سكان فلسطين الغربية البالغ عددهم ٦٠٠,٠٠٠ أو نحو ذلك. وكانت لأعمال اهارونسون تطبيقات أوسع: فقد عاد اورمسبي ـ غور إلى لندن حاملاً معه فكرة مفادها ان اليهود الصهاينة قادرون على مساعدة الشعوب العربية وغيرها من شعوب الشرق الأوسط على إحياء منطقتهم بحيث تزدهر الصحراء مرة أخرى.

(٢)

ما ان أصبح لويد جورج رئيساً للوزراء حتى بدأ ليو ايميري خطوة لوضع فلسطين في سياق مستقبل الامبراطورية البريطانية. فقد اقترح ايميري في نهاية عام ١٩١٦ انشاء مجلس وزراء حربي امبراطوري، وأرسل مذكرة بهذا الموضوع إلى اللورد ميلنر، الذي هيأ للويد جورج ان يطرح الفكرة على التصويت(٨).

كانت الحرب قد أوجدت حاجة لهذه الهيئة: فالامبراطورية كانت تسهم بالعديد من القوى البشرية في المجهود الحربي، وصار الجنود الذين من خارج بريطانيا يشكلون جزءاً كبيراً من القوات المسلحة البريطانية. وممتلكات التاج البريطاني (الدومنيون) وحدها كانت تسهم بأكثر من مليون رجل للقوات المسلحة، في حين ان الامبراطورية الهندية كانت تسهم بما لا يقل عن نصف مليون رجل مقاتل ومئات الآلاف من الجنود المساندين. ومع ذلك لم يسبق قط ان استشيرت كندا، واوستراليا، ونيوزيلندا، والهند، وشريكات بريطانيا الأخرى في القتال، بشأن خوض الحرب. فقد أعلن الملك جورج الخامس الحرب وقام الحكام العامون لممتلكات التاج في ما وراء البحار بإصدار إعلانات بالحرب من قبلهم. ولكن لا برلمانات ولا حكومات بلدان الدومنيون كانت شريكة في هذه القرارات. وقد هدف اقتراح ايميري إلى الاعتراف، ولو في وقت متأخر، بأهمية هؤلاء الشركاء عن طريق منحهم التمثيل في هيئة مركزية في لندن تتولى الادارة العامة للحرب.

كانت قناعة ايميري، مثلما كانت قناعة أصدقاء اللورد ميلنر الآخرين، انه يجب تغيير بنية الامبراطورية البريطانية تغييراً أساسياً. ومع حلول نهاية عام ١٩١٦ وميوعة الوضع السياسي في لندن وانهيار الأحزاب والهيئات الأخرى، بدت أمور كثيرة ممكنة مع انها ما كانت تبدو كذلك من قبل.

كان إنشاء الامبراطورية حتى زمن دزرائيلي عملاً عشوائياً بل قيل إنه عمل جاء سهواً. وقد

(*) في نهاية عام ١٩٨٤ كان عدد سكان اسرائيل ٤,٢٣٥,٠٠٠ وعدد سكان الضفة الغربية ١,٣٠٠,٠٠٠ ـ أي ما مجموعه ٥,٥٣٥,٠٠٠ نسمة يعيشون الآن في نحو ٢٥٪من أرض فلسطين حسب تعريف صك الانتداب البريطاني.

(٨) **مفكرات ليو ايميري**، المجلد ١، ١٨٩٦ ـ ١٩٢٩ أعدها للطباعة جون بارنز وديفيد نيكولسون (لندن: هتشنسون، ١٩٨٠)، ص ١٣٧.

أعطى دزرائيلي هذا العمل ألقاً وركّز الانتباه عليه. وجاء بعد ذلك ايميري واصدقاؤه من بطانة ميلنر، الذين سبق ان عملوا بتنسيق مع سيسيل رودس وجوزيف تشامبرلين، فكانوا بين أوائل دعاة الامبراطورية عن وعي ومنهجية، بينما كان شريكاهما روديارد كيبلينغ وجون بوتشان من بين ممجدي الامبراطورية عمداً. وكثيرون بين هؤلاء دعوا إلى انشاء نظام اقتصادي يشمل الامبراطورية ويكون مغلقاً على الخارج بواسطة التعرفات الجمركية. ودعا غيرهم، ممن رأوا ان الأجزاء المختلفة من الامبراطورية غالباً، ما تتخذ مواقف اقتصادية متناقضة، إلى شراكة سياسية أوثق. ان ليونيل كورتيس، مؤسس جريدتهم المسماة «الطاولة المستديرة» ادعى انه لا خيار أمام الامبراطورية البريطانية سوى الاتحاد الفيديرالي أو التفكك. وكان يتحدث باسم الذين ينادون من ضمن أفراد بطانة ميلنر بإقامة اتحاد عضوي وسياسي في الامبراطورية وإقامة برلمان امبراطوري منتخب من بلدان الدومنيون ومن بريطانيا نفسها، بما يؤدي إلى قيام مجلس وزراء امبراطوري يحكم الامبراطورية كلها. وقد رفض برنامجهم هذا في مؤتمر امبراطوري عقد عام ١٩١١، ولكن بدا ان انهيار البنى السياسية العالمية خلال الحرب العالمية يوفر فرصة ثانية.

في ١٩ كانون الثاني (يناير) ١٩١٦، وبناء على اقتراح ايميري، أبلغ لويد جورج مجلس العموم: «إننا نشعر ان الوقت قد حان كي تستشار بلدان الدومنيون رسمياً وبصورة أفضل» في مسائل الحرب والسلام[٩]. وتبعاً لذلك دعا إلى انعقاد مؤتمر حربي امبراطوري أطلق عليه اسم مجلس الوزراء الحربي الامبراطوري، على ان يجتمع المؤتمر في لندن بعد ذلك بثلاثة أشهر.

لا أحد كان أكثر ارتياباً في نيات الحكومة من مندوب جنوب افريقيا، جان كريستيان سمطس، وهو محام أصبح جنرالاً وقاتل البريطانيين في حرب البوير. ولم تكن عنده رغبة في ان تحكمه لندن. وصل سمطس إلى لندن في ١٢ آذار (مارس) ١٩١٧ لحضور المؤتمر وتعمقت شكوكه عندما تلقى في اليوم عينه دعوة إلى العشاء مع اللورد ميلنر عدوه السابق.

لدى افتتاح المؤتمر نوقش الموضوع فوراً. وأحرز سمطس نصراً دائماً. فقد دفع في ١٦ آذار (مارس) ١٩١٧ إلى التصويت قراراً يقضي بتأجيل النظر في تفاصيل كيفية اعادة تنظيم الامبراطورية البريطانية حتى انتهاء الحرب، ولكنه ألزم المشاركين في المؤتمر بالموافقة سلفاً على ان يكون أساس اعادة التنظيم هو استقلال جنوب افريقيا، وكندا، واوستراليا، ونيوزيلندا.

لعل لويد جورج كان أقل شعوراً بخيبة الأمل في هذه النتيجة مما كان زملاؤه من بطانة ميلنر. فقد كانت لرئيس الوزراء أسبابه الخاصة، إذ انه رأى سبلاً يستطيع بها سمطس دون غيره ان يخدمهم. كان سمطس ادارياً متفوقاً من طراز ميلنر وايميري وهانكي، وبإمكانه مساعدتهم في ادارة المجهود الحربي. وباعتباره جنرالاً ناجحاً في أيام حرب البوير وبعد ذلك في شرق افريقيا، وكممثل لبلاد الدومنيون، يستطيع أيضاً ان يساعد لويد جورج بأن يلقي بوزنه ضد الجنرالات

---

(٩) و. ك. هانكوك، سمطس: السنوات الدموية ١٨٧٠ ـ ١٩١٩ (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٦٢)، ص ٤٢٦.

البريطانيين. وقد أقنعه لويد جورج بالبقاء في لندن والعمل في مجلس الوزراء الحربي «معاراً» من مجلس وزراء بلاده. وهكذا فإن سمطس لم يعمل كعضو في مجلس الوزراء البريطاني فحسب، بل عمل أيضاً عضواً في مجلس الوزراء الحربي الامبراطوري (أو المؤتمر الحربي الامبراطوري) وكان هو العضو الوحيد في مجلس الوزراء البريطاني في تاريخ بريطانيا الحديث الذي لم تكن له صلة بأي من مجلسي البرلمان. وقد أمضى بقية الحرب بعيداً عن بلاده مقيماً في إحدى غرف فندق سافوي[10].

كتب لويد جورج في ما بعد «ان الجنرال سمطس عبّر عن وجهات نظر ثابتة جداً إزاء الأهمية الاستراتيجية لفلسطين بالنسبة للامبراطورية البريطانية» واستحوذ هذا الأمر على لويد جورج في الحال[11]. وقد تحرك سمطس وايميري في الوقت نفسه لتمتين الروابط الجغرافية بين الكيانات التي تشكل النظام البريطاني، وربما كان تحركهما بسبب القرار الذي اتخذ بعدم تمتين الروابط السياسية للامبراطورية. وقد ركّز كلا الرجلين على فلسطين. وإذا أردنا تعريف فلسطين بتوسع، وبالترابط مع بلاد الرافدين، نجد ان فلسطين توفر لبريطانيا الطريق البرية من مصر إلى الهند وتوفر الإتصال بين امبراطورية افريقيا وامبراطورية آسيا. ذلك ان الاستيلاء على شرق افريقيا الالمانية من قبل بوتا وسمطس، قد أوجد بسطة من الأراضي المتصلة التي تسيطر عليها بريطانيا تمتد من مدينة الكاب، الميناء الواقع على المحيط الأطلسي عند الطرف الجنوبي للقارة الافريقية من جهة، والسويس التي تصل بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر عند الطرف الشمالي الشرقي للقارة الافريقية من جهة أخرى. فإذا أضيفت فلسطين وبلاد الرافدين تصبح بسطة الأرض الممتدة بين مدينة الكاب والسويس مرتبطة ببسطة الأرض الممتدة عبر بلاد فارس الخاضعة لسيطرة بريطانيا وعبر الامبراطورية الهندية لتتصل ببورما والملايو والبلدين الكبيرين من بلدان الدومنيون الواقعين في المحيط الهادي - أي استراليا ونيوزيلندا. في عام ١٩١٧ كانت فلسطين هي الحلقة الرئيسة المفقودة التي يمكن ان تربط أجزاء الامبراطورية البريطانية بعضها ببعض بحيث تشكل سلسلة غير منقطعة تمتد من المحيط الأطلسي إلى منتصف المحيط الهادي.

بطبيعة الحال، رأى رئيس الوزراء الأمور على هذا النحو. وقد كتب في ما بعد «القتال مع تركيا له أهمية خاصة بذاته بالنسبة للامبراطورية البريطانية... ان الامبراطورية التركية تقع تماماً عبر الطريق البرية أو البحرية إلى ممتلكاتنا الكبيرة في الشرق - الهند، وبورما، والملايو، وبورنيو، وهونغ كونغ، واوستراليا، ونيوزيلندا»[12].

---

(١٠) اللورد بيفربروك، **الرجال والسلطة ١٩١٧ - ١٩١٨** (لندن: هتشنسون، ١٩٥٦)، الصفحات ٢٤ - ٢٥ (بالأرقام اللاتينية)، ا.ج.ب. تيلور، **التاريخ الانكليزي ١٩١٤ - ١٩٤٥** (اوكسفورد. مطبعة كلارندون، ١٩٦٥)، ص ٨٢.

(١١) **مذكرات لويد جورج عن الحرب**، المجلد ٤: ١٩١٧ (بوسطن: ليتل وبراون، ١٩٣٤)، ص ٩٠.

(١٢) المرجع نفسه، الصفحتان ٦٦ - ٦٧.

كان ايميري على وشك ان يشير على مجلس الوزراء بأن استمرار السيطرة العثمانية (وبالتالي الالمانية) على فلسطين يمثل في المستقبل خطراً على الامبراطورية البريطانية، وكان ايميري يشارك رئيس الوزراء اعتقاده بوجوب غزو فلسطين فوراً ـ وبأن سمطس هو الجنرال الذي يجب ان يقوم بذلك، لأن سمطس لم يكن جنرالاً ناجحاً فحسب، بل كان أيضاً يشاركهما أهدافهما الاستراتيجية المباشرة وأهدافهما الجيوبوليتيكية الأوسع.

في ١٥ آذار (مارس) ١٩١٧، اليوم الذي أحرز فيه سمطس انتصاره في المؤتمر الامبراطوري، كتب ايميري إليه قائلاً:

«إن الشيء الوحيد الجوهري إذا ما أردنا ان نقوم بعمل كبير وسريع في اتجاه فلسطين، هو وجود جنرال أكثر اندفاعاً وجرأة... ولو كنت أنا ديكتاتوراً لطلبت إليك ان تقوم بالمهمة بصفتك الجندي القيادي الوحيد ذا الخبرة في الحرب المتحركة والذي لم تُحفر خنادق عميقة في عقله»[١٣].

لقد عرض لويد جورج القيادة على سمطس، فتردد في قبولها وأرسل يطلب نصيحة الجنرال لويس بوتا رئيس وزراء جنوب افريقيا. كان سمطس ميالاً إلى قبول العرض، ومنطقه للقبول هو «ان الوضع على الجبهات الأخرى كان في غاية الصعوبة وان فلسطين هي الوحيدة التي يمكن تحقيق نجاح عظيم فيها بهجمة كبيرة»[١٤]. لقد قرر بوتا وسمطس بعد التشاور انه يجب قبول العرض إذا كانت الحملة ستشن «على نطاق واسع» وكانت حملة «من الطراز الأول برجالها وسلاحها»[١٥].

عندئذٍ اجتمع سمطس مع سير وليم روبرتسون، رئيس هيئة الأركان العامة لقوات الامبراطورية، الذي أوضح له انه لا ينوي الاستغناء عن القوات والامدادات المطلوبة من الجبهة الغربية، ورفض فكرة الشرق الأوسط واصفاً إياها بأنها هاجس خاص عند رئيس الوزراء وانها في أفضل حالاتها «مجرد عرض جانبي»[١٦]. لم يكن لويد جورج قد أمضى في منصبه سوى أشهر قليلة وكان مركزه ضعيفاً، وسلطته على العسكريين محدودة، فاستنتج سمطس ان لويد جورج لن يتمكن من الوفاء بالوعد الذي قطعه بتوفير الدعم الكامل. وهكذا رفض سمطس عرض توليه قيادة حملة فلسطين، شاعراً ان الحملة في الشرق سيخربها روبرتسون وزملاؤه.

مع ذلك ظل سمطس يبدي اهتماماً شديداً بفلسطين. وقد ذهب هو وايميري في ما بعد معاً إلى

---

(١٣) **مختارات من أوراق سمطس**، المجلد ٣: حزيران ١٩١٠ ـ تشرين الثاني ١٩١٨ أعدها للطباعة و. ك. هانكوك وجان فان رد بويل (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٦٦)، ص ٤٦٥.

(١٤) المرجع نفسه، ص ٥٠٠.

(١٥) هانكوك، **سمطس**، الصفحتان ٤٣٤ ـ ٤٣٥.

(١٦) **مختارات من اوراق سمطس**، المجلد ٥، أيلول ١٩١٩ ـ تشرين الثاني ١٩٣٤ أعدها للطباعة فان در بويل (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٧٣)، ص ٢٥.

الشرق الأوسط لدراسة الوضع واعداد تقرير، فعادا كلاهما يحثان على شن هجوم قوي على فلسطين.

وبصفته من جماعة البوير، وتربى على قراءة الكتاب المقدس، كان سمطس مؤيداً قوياً للفكرة الصهيونية عندما أثيرت في مجلس الوزراء. وقد ذكر في وقت لاحق «ان شعب جنوب افريقيا وخصوصاً السكان الهولنديين الأقدم عهداً، قد تربوا تربية كاملة على التقاليد اليهودية. ان العهد القديم هو عصب الثقافة الهولندية في جنوب افريقيا»[١٧]. وقد نشأ سمطس، مثل لويد جورج، على الايمان «بأنه سيأتي اليوم الذي تتحقق فيه كلمات الانبياء ويعود شعب اسرائيل إلى أرضه»[١٨]، كما انه كان على اتفاق تام مع لويد جورج على وجوب اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين تحت رعاية بريطانية. وسواء أكان سمطس أم لم يكن هو صاحب الفكرة، فقد كان هو المسؤول عن إيجاد الصيغة ـ المقبولة من وودرو ولسون ـ التي بموجبها تتولى بلدان كبريطانيا مسؤولية إدارة مناطق كفلسطين وبلاد الرافدين: فهي ستحكمها بموجب «انتداب» من عصبة الأمم التي ستنشأ في المستقبل. وستوضع هذه المناطق تحت الوصاية وتُحفظ لشعوبها ـ وهي صيغة هدفها التوافق مع الأفكار الأميركية المعادية للامبريالية.

وضع ايميري تفاصيل هذه الرؤية الأمبراطورية في نهاية عام ١٩١٨، عندما أبلغ سمطس كتابة ان سيطرة بريطانيا على الشرق الأوسط يجب ان تكون دائمة وألّا تنتهي بإنتهاء الانتدابات. وكتب يقول، دون ان يفصح عن التفاصيل، انه حتى عندما تستقل فلسطين وبلاد الرافدين ودولة تنشأ في شبه الجزيرة العربية، يجب ان تبقى هذه المناطق ضمن النظام الامبراطوري البريطاني. كان يرى ان امبراطورية المستقبل البريطانية ستكون أشبه بعصبة أمم مصغّرة، وان عصباً صغيرة أخرى ستنشأ في بقاع أخرى من العالم. ولذلك فإن عصبة الأمم الجامعة التي يدعو إليها وودرو ويلسون ستضم عدداً قليلاً نسبياً من الأعضاء: إذ سيكون فيها ممثل واحد للنظام البريطاني وممثل واحد عن كل من الأنظمة الفرعية المتعددة الأخرى[١٩].

ولم يكن في نظر ايميري تباين بين فلسطين بريطانية وفلسطين يهودية. ولم ير سبباً يحول دون انسجام الطموحات البريطانية أو اليهودية مع الطموحات العربية. وقد كتب بعد عقود من السنين عن الذين نافحوا عن الحلم الصهيوني في العامين ١٩١٧ و١٩١٨ فقال: «معظمنا نحن جيل الشباب الذين شاركوا في هذا الأمل كنا، مثل مارك سايكس، مؤيدين للعرب ومؤيدين للصهيونية، ولم نر تبايناً جوهرياً بين الفكرتين المثاليتين»[٢٠].

---

(١٧) المرجع نفسه، صفحة ١٨.

(١٨) هانكوك، **سمطس**، الصفحتان ٤٣٤ ـ ٤٣٥.

(١٩) **أوراق سمطس**، المجلد ٤، تشرين الثاني ١٩١٨ ـ آب ١٩١٩ أعدها للطباعة و. ك. هانكوك وجان فان دربويل (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٦٦)، الصفحتان ٢٦ ـ ٢٧.

(٢٠) ايميري، **حياتي السياسية**، ص ١١٦.

الفصل الرابع

أرض الميعاد

(١)

بينما كانت سنة ١٩١٧ المليئة بالأحداث تأخذ مجراها، كانت سياسة بريطانيا تجاه فلسطين لاتزال تصاغ بأيد عديدة: بأيدي أعضاء في مجلس الوزراء من ناحية، وبأيدي بيروقراطيين غير معروفين إلّا قليلاً خارج الأوساط الرسمية ولا يعرف عنهم سوى القليل الآن، من ناحية أخرى.

عند توزيع العمل في أمانة السر ذات السلطة الواسعة في مجلس الوزراء الحربي، جاء الشرق الأوسط ضمن اختصاص سير مارك سايكس، ربيب كيتشنر، كما سبق ان وقعت ضمن اختصاصه بعيد نشوب الحرب. ولم تكن لدى رئيسه، موريس هانكي، وجهة نظر متشددة في ما يتعلق بالشرق الأوسط، ولذلك كان سايكس، عقب موت كيتشنر وفيتزجيرالد يتصرف من دون أي توجيه فعلي من أعلى. ولم يكن يعلم ان رئيس الوزراء الجديد يتبنى وجهات نظر ثابتة بشأن تسوية شرق أوسطية وان وجهات النظر هذه تختلف اختلافاً كبيراً عن وجهات نظره. كما انه لم يشارك في المفاوضات السرية التي جرت بواسطة زاخاروف والتي كشفت خلالها شروط رئيس الوزراء للصلح في الشرق الأوسط.

لذلك ظل سايكس آنذاك يدور حائراً وعلى مسؤوليته وبدون توجيه، حول مسألة فلسطين. كانت التعليمات التي تلقاها من كيتشنر وفيتزجيرالد تقضي بأن يعتبر فلسطين غير ذات أهمية استراتيجية لبريطانيا، ولم يقم أحد إطلاقاً بإلغاء هذه التعليمات. غير انه علم من خلال المفاوضات مع فرنسا وروسيا في عام ١٩١٦ ان الأرض المقدسة تهم عاطفياً الكثير من اليهود الذين شعر سايكس ان تأييدهم قد يكون حيوياً بالنسبة للحلفاء. ومع ذلك فإن الرأي العام اليهودي قد تنفّره بعض الترتيبات التي يفاوض بشأنها حلفاء بريطانيا ومؤيديها المحتملين، والخاصة بالشرق الأوسط بعد الحرب. وبينما كان يجري مباحثات مع فرنسيين وروسيين وأرمن وعرب، تملكه خوف ـ وهو خوف لا أساس له ولكنه كان حقيقياً في نظره ـ من ان يتعرض كل عمل

ينجزه مع طرف آخر لحظر إفشاله نتيجة المقاومة اليهودية.

في بداية عام ١٩١٧ كان سايكس يجري حواراً مع جيمس مالكولم، وهو رجل أعمال أرمني، بشأن إقامة دولة أرمنية قومية مستقلة. وقد فكرا بدعوة روسيا إلى الشرق الأوسط بعد الحرب كدولة حامية لأرمينيا موحدة. ولكن بما ان سايكس اعتقد ان الرأي العام اليهودي يُكنّ لروسيا عداء شديداً، فقد رأى انه لا بد من عمل شيء مسبقاً لابطال المعارضة اليهودية المحتملة لمشروع يسمح بتوسيع روسيا الامبراطورية، ولذلك طلب إلى مالكولم ان يدله على زعماء الصهيونية ليتصل بهم في هذا الصدد.

سبق لمالكولم ان التقى ليوبولد غرينبرغ، الشريك في ملكية جريدة «جويش كرونيكل» ورئيس تحريرها، الذي صادف ان عمل بصفة الممثل البريطاني لتيودور هرتزل، فكتب مالكولم إلى غرينبرغ ليسأله من هم زعماء المنظمة الصهيونية، فلما تلقى الجواب، نقل المعلومات التي تلقاها إلى سايكس، وبدا من هذه المعلومات ان اسمين لهما أهمية خاصة: ناحوم سوكولوف، أحد مسؤولي الحركة الصهيونية الدولية، والدكتور حاييم وايزمان، أحد مسؤولي الاتحاد الصهيوني البريطاني والذي كان معارضاً لقرار الحركة الصهيونية بالبقاء على الحياد في الحرب العالمية(*). وقدم مالكولم نفسه إلى وايزمان، وبعيد ذلك، في ٢٨ كانون الثاني (يناير) ١٩١٧ قدم وايزمان إلى سايكس.

لم يكن وايزمان يعلم ان الحلفاء قد شرعوا فعلاً في اعداد الخطط للشرق الأوسط بعد الحرب، ولكنه رغب في ان يحصل على التزام من بريطانيا بشأن فلسطين بينما الحرب مستمرة. وبصفته عالماً كيميائياً، قدم إسهاماً هاماً إلى المجهود الحربي عندما تبرع للحكومة باكتشافه طريقة لاستخراج الاسيتون من الذرة الصفراء ـ والأسيتون هو أحد العناصر الهامة التي تدخل في صنع المتفجرات(**). ولكن وايزمان بالرغم من خدمته للحرب واتساع دائرة معارفه في أوساط كبار المسؤولين المعنيين بإدارة المجهود الحربي، لم يعرف انه كان في بريطانيا مسؤول مهمته هي التفاوض لتحديد شكل الشرق الأوسط بعد الحرب. فقد كان هناك زعيم صهيوني بريطاني آخر، هو الحاخام غاستر، على معرفة مع سايكس ـ وكان يعرف أيضاً ان المهمة موكلة إلى سايكس ـ ولكنه اعتبر وايزمان منافساً له فاحتفظ بما لديه من معلومات لنفسه بدافع الغيرة. ولذلك عرف وايزمان بأمر سايكس بطريق المصادفة ـ وذلك عندما تحدث سايكس عن مهمته إلى جيمس

(*) ولد وايزمان في روسيا واكتسب الجنسية البريطانية فأصبح من رعايا بريطانيا، وكان متحمساً في تأييده للحلفاء، ويعتقد أن الديموقراطيات الغربية وحدها تتجانس مع المثل العليا اليهودية. وبما أنه لم يكن يشغل أي منصب رسمي في الحركة الصهيونية الدولية، كان له مطلق الحرية في أن يفترق عن حيادها، ولكن بصفته مسؤولاً في الاتحاد الصهيوني البريطاني كان يستطيع أن يتحدث بصفة تمثيلية.

(**) عندما كتب لويد جورج مذكراته بعد انتهاء الحرب بسنوات، اخترع قصة مفادها أن اعلان بلفور صدر من قبيل الامتنان لاكتشاف وايزمان. ومع أن اكتشاف وايزمان الهام هو حقيقي، إلا أن قصة لويد جورج هي نسج الخيال.

دو روتشيلد في مطلع عام ١٩١٧، في معرض حديث عابر عن اسطبلاتهما لتربية الخيول. وقد نقل روتشيلد المعلومات التي سمعها إلى وايزمان، وكان هذا على وشك ان يتخذ ترتيبات ليجتمع مع سايكس فإذا بجيمس مالكولم يضع ترتيبات لكي يجتمع سايكس مع وايزمان.

كلاهما كان يرغب في ان يفعل ما أراد منه الآخر ان يفعله. فقد رغب سايكس في العثور على شخص يستطيع ان يفاوضه من أجل تحالف بين المصالح البريطانية والمصالح الصهيونية، ورغب وايزمان في ان يكون هو ذلك الشخص.

كانت اجتماعاتهما الأولى على أساس غير رسمي. وحاول سايكس منذ البداية، كعادته دائماً، ان ينسق جميع مشاريعه الشرق أوسطية في إطار اتفاقية سايكس ـ بيكو ـ سازانوف القائمة ـ والتي كانت لاتزال سرية، ولم يكن وايزمان يعرف شيئاً عنها. وهذه الاتفاقية تقضي بوضع الأماكن المقدسة تحت إدارة دولية. ولذلك بدأ سايكس الحديث باقتراح ان يكون الكيان اليهودي في فلسطين تحت حكم بريطاني ـ فرنسي مشترك (حكم ثنائي) ـ مع انه لم يستطع ان يكشف لوايزمان سبب تقديمه هذا الاقتراح. وكان سايكس، دون ان يدرك، غير مواكب ليس لخطوات الزعماء الصهيونيين فحسب، بل لخطوات رئيس الوزراء أيضاً. فقد كان لويد جورج يريد ـ شأنه شأن وايزمان وزملائه ـ ان تكون فلسطين بريطانية. ومع ان سكوت، رئيس تحرير جريدة «مانشستر غارديان» ومحط ثقة لويد جورج، أشار على وايزمان بأن يبحث الأمر مع رئيس الوزراء، قرر وايزمان التركيز على تبديل أفكار سايكس بدلاً ان من يأتيه من أعلى[1].

اجتمع سايكس مع وايزمان وصهيونيين بريطانيين آخرين في لندن بتاريخ ٧ شباط (فبراير) ١٩١٧ فأبلغوه انهم يعارضون فكرة الحكم الثنائي ويريدون ان تكون فلسطين تحت الحكم البريطاني. فأجابهم سايكس بأن كل الصعوبات الأخرى يمكن ايجاد حل لها (قال لهم: «العرب يمكن تدبير أمرهم») أما رفض الحكم الثنائي فيضعهم أمام مشكلة ليس عنده حل أكيد لها. وقال إن فرنسا هي «الصعوبة الجدية»[2]، مبيناً ان فرنسا ترفض الاعتراف بأن إعطاء امتيازات للصهيونية يساعد في الحرب. واعترف سايكس للزعماء الصهاينة بأنه لا يستطيع فهم السياسة الفرنسية في هذا الصدد. وتساءل: «ما هو دافع فرنسا؟»[3]

في اليوم التالي قام سايكس بتقديم الزعيم الصهيوني الدنيوي ناحوم سوكولوف إلى فرانسوا جورج بيكو الذي أبلغ سوكولوف انه بعد ان رأى نتائج اقامة المستعمرات اليهودية في فلسطين، يعتقد بأن برنامج الاستيطان اليهودي قابل للتنفيذ. وقد حدث التعارف بين سوكولوف وبيكو في منزل سايكس في شارع بكنغهام غيت رقم ٩ في لندن. وقال سوكولوف مخاطباً بيكو ان اليهود

(١) رخوبوت اسرائيل، محفوظات وثائق وايزمان. رسالة شاسر ٢ شباط ١٩١٧، رسالة سكوت ٣ شباط ١٩١٧، رسالة وايزمان ٣ شباط ١٩١٧.

(٢) رخوبوت، اسرائيل، محفوظات وثائق وايزمان. مذكرة حول اجتماع ٧ شباط ١٩١٧.

(٣) المرجع نفسه.

يكنـون لفـرنسا إعجاباً شديداً ولكنهم «منذ أمد طويل يفكرون بأن تكون السلطة للحكومة البريطانية»[٤] فأجابه بيكو ان مسألة السلطة متروكة للحلفاء ليقرروها في ما بينهم. ثم أضاف انه سيبذل قصارى جهده لإطلاع حكومته على الأهداف الصهيونية، ولكنه لا يرى إمكانية لأن تقرر حكومته التخلي عن مطلبها في فلسطين. وقال إن ٩٥٪ من الشعب الفرنسي يريد من فرنسا ان تضم فلسطين إليها[٥].

اتفق جميع المعنيين على انتظار ما تحمله الأحداث، ولم تكن الأحداث بطيئة في تتابعها. ففي غضون شهرين أطيح بقيصر روسيا ودخلت الولايات المتحدة الحرب. وسرعان ما تنبه سايكس إلى ما يعنيه هذان الحدثان بالنسبة لترتيباته مع بيكو. فقد كان ملايين اليهود يعيشون ضمن امبراطورية القيصر، ورأى سايكس بعد الثورة الروسية في آذار (مارس) ان ضمان تأييد هؤلاء اليهود قد يساعد في استمالة الحكومة الروسية الجديدة إلى البقاء في الحرب[٦]. وفي الوقت نفسه عزز دخول الولايات المتحدة الحرب قناعته بأن الحلفاء الأوروبيين سيضطرون إلى إثبات سلامة مطالبتهم بمركز لهم في الشرق الأوسط بعد الحرب عن طريق تبني رعاية الشعوب المقهورة، مثل اليهـود والعـرب والأرمن. ولهـذين السببـين شعر ان لديه حججاً جديدة يقنع بها الحكومة الفرنسية باتخاذ موقف أكثر تعاطفاً تجاه الصهيونية.

في هذه الأثناء كانت محادثاته مع بيكو على وشك ان تستأنف: وقد نجح لويد جورج في اصدار أمر إلى الجيش البريطاني في مصر بمحاولة غزو فلسطين في عام ١٩١٧، وهذا ما حمل الحكومة الفرنسية على الإصرار على إرسال بيكو إلى مصر لمرافقة قوات الغزو البريطانية ـ فردّت الحكومة البريطانية على ذلك بإصدار أمر إلى سايكس بأن يذهب هو أيضاً إلى مصر ليكون صلة وصل بين بيكو والقائد العسكري البريطاني. كانت نظرة بيكو إلى الغزو البريطاني المقبل انه هجوم على المصالح الفرنسية. وقد قال في تقرير كتبه «ان لندن تعتبر الآن اتفاقياتنا حبراً على ورق. فالجنود البريطانيون سيدخلون سورية من الجنوب ـ أي من مصر وفلسطين ـ وسوف يشتتون شمل مؤيدينا»[٧].

أصبح لويد جورج متبرماً بمطالب فرنسا في الشرق الأوسط، فأبلغ وايزمان ان مستقبل فلسطين هو مسألة يجب حلها بين البريطانيين واليهود[٨]. وقال انه لا يستطيع ان يفهم سبب اهتمام

---

(٤) رخوبوت، اسرائيل. محفوظات وثائق وايزمان. ملاحظات عن اجتماع ٨ شباط ١٩١٨.

(٥) رونالد ساندرز، **اسوار القدس العالية: تاريخ اعلان بلفور ونشوء الانتداب البريطاني على فلسطين** (نيويورك: هولت وراينهارت وونستون، ١٩٨٣)، ص ٤٦٦.

(٦) روجر ادلسون، **مارك سايكس: لوحة هاو** (لندن: جوناثان كيب، ١٩٧٥)، ص ٢٢٥.

(٧) كريستـوفـر م. انـدريـو وا.س. كانيا فوستنر، **ذروة التوسع الامبراطوري الفرنسي: ١٩١٤ ـ ١٩٢٤** (ستانفورد: مطبعة جامعة ستانفورد، ١٩٨١)، ص ١٢٤.

(٨) ادلسون، **سايكس**، ص ٢٢٥.

سايكس بالاعتراضات الفرنسية، وقال لوايزمان ان فلسطين «بالنسبة لي هي في الحقيقة الجانب الوحيد الجدير بالاهتمام في الحرب»[9].

بعد ظهر ٣ نيسان (ابريل) ١٩١٧ توجه سايكس، المعين حديثاً لرئاسة البعثة السياسية لدى القائد العام لقوات الحملة المصرية، إلى شارع داوننغ رقم ١٠ لتلقي التعليمات الأخيرة قبل سفره. وقد اجتمع هناك مع رئيس الوزراء واللورد كورزون وموريس هانكي. واقترح سايكس ان يحاول اثارة تمرد القبائل العربية وراء خطوط العدو، ولكن لويد جورج وكورزون شددا على أهمية عدم الزامه بريطانيا باتفاق مع القبائل، من شأنه ان يلحق الضرر بالمصالح البريطانية. وقد طلبا إليه على وجه التحديد ألَّا يفعل شيئاً من شأنه ان يزيد المشكلة مع فرنسا تفاقماً، وان يضع في ذهنه «أهمية عدم الاساءة إلى الحركة الصهيونية وامكانية تطويرها تحت رعاية بريطانية»[10]. ويفيد محضر الاجتماع ان «رئيس الوزراء شدد على أهمية ضمان إضافة فلسطين إلى المنطقة البريطانية في الشرق الأوسط بعد الحرب إذا كان ذلك ممكناً»[11]. وحذّر رئيس الوزراء سايكس من إعطاء أية تعهدات إلى العرب «وخصوصاً إعطاء أي تعهد يتعلق بفلسطين»[12].

توقف سايكس أولاً في باريس حيث أقام في فندق لوتي في شارع كستليون، على بعد خطوات من ساحة فاندوم ونصبها التذكاري الذي يخلد نابليون بونابرت وفتوحاته. وخلال وجوده هناك قال لبيكو انه ينبغي لفرنسا ان تغير طريقة تفكيرها وان تتخذ موقف عدم ضم المناطق إليها، موضحاً ان ذلك قد ينطوي على رعاية أميركية أو بريطانية لإحياء يهودا ورعاية فرنسية لإحياء أرمينيا. وقد فوجيء سايكس بأن بيكو بدا محرجاً بما سمع منه[13].

وقد أرسل سايكس من فندق لوتي بتاريخ ٨ نيسان (ابريل) ١٩١٧ رسالة إلى وزير خارجية بريطانيا، آرثر بلفور، تفيد ان الفرنسيين يتخذون موقفاً عدائياً من فكرة المجيء بالولايات المتحدة إلى فلسطين بصفة راعية للصهيونية، وانهم يخافون ان تصبح الولايات المتحدة إذا ما دخلت الشرق الأوسط، منافسة تجارية لفرنسا في المنطقة. وتابع قائلاً: «وفي ما يتعلق بالصهيونية نفسها، بدأ الفرنسيون يدركون انهم في مواجهة أمر كبير، وانهم لا يستطيعون ان يغمضوا عيونهم عنه»[14].

(٩) ساندرز، **اسوار القدس العالية**، ص ٤٩٣.

(١٠) رخوبوت، اسرائيل. محفوظات وثائق وايزمان. أوراق سليدمير. ملاحظات عن مؤتمر عقد في شارع داوننغ رقم ١٠، ٣ نيسان ١٩١٧.

(١١) المرجع نفسه.

(١٢) المرجع نفسه.

(١٣) ادلسون، **سايكس**، ص ٢٢٧.

(١٤) اوكسفورد. كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق مارك سايكس. د.س. ١٤٩.

كانت وزارة الخارجية الفرنسية تعتقد، مثلما كان سايكس يعتقد، في ذلك الحين، ان باستطاعة يهود روسيا ان يساعدوا في إبقاء روسيا شريكة في الحرب، في وقت كانت الكوارث العسكرية فيه على الجبهة الغربية تجعل الجبهة الشرقية بالغة الأهمية. وبدا ناحوم سوكولوف، الذي قدمه سايكس إلى وزارة الخارجية الفرنسية، مستعداً لتقديم المساعدة في هذا الشأن. وقد سارت مباحثاته مع المسؤولين الفرنسيين سيراً حسناً. وكتب سايكس إلى بلفور بتاريخ ٩ نيسان (ابريل) قائلاً: «الوضع الآن هو ان الفرنسيين يعترفون بأن الطموحات الصهيونية شرعية»[١٥].

بيد ان فرنسا ظلت متشبثة بمطالبها في الشرق الأوسط. وقد اجتمع سايكس مع زعيم كتلة دعاة الاستعمار الفرنسيين، عضو مجلس الشيوخ بيير ـ إيتان فلاندان. وكتب في ١٥ نيسان (ابريل) إلى وزارة الخارجية البريطانية ليبلغها ان فلاندان مستمر في إصراره على حصول فرنسا على ساحل سورية ولبنان وفلسطين بكامله حتى العريش في سيناء المصرية. وادعى فلاندان ان «بيكو أحمق وانه خان فرنسا» بما قدم من تنازل لبريطانيا في اتفاقية سايكس ـ بيكو[١٦].

انتقل سايكس من باريس إلى روما حيث اتخذ ترتيبات لتمكين ناحوم سوكولوف من الدفاع عن القضية الصهيونية أمام البابا والمسؤولين في الفاتيكان. ولكن برزت مشكلة جديدة أفسدت أي أمل قد يكون استوحاه من اجتماعاته في الفاتيكان: فقد أكّد وزير خارجية ايطاليا، البارون سيدني سونينو، تأكيداً شديداً مطالبة ايطاليا بحصة في الشرق الأوسط بعد الحرب.

وما ان وصل سايكس إلى القاهرة، حتى جمع حلفاءه المختلفين لاقناعهم بالعمل معاً. فقدم أولاً بيكو إلى الزعماء العرب في القاهرة، ثم اتخذ ترتيبات لرحلة يقوم بها هو وبيكو إلى شبه جزيرة العرب للاجتماع بالشريف حسين واطلاعه، ولو بطريقة عامة، على أحكام اتفاقية سايكس ـ بيكو ـ سازانوف السرية. وكان سايكس متفائلاً في اعتقاده انه حمل الحسين على الاعتراف بأن الفرنسيين يمكنهم ان يكونوا على قدر من المساعدة للعرب في سورية، وانه أقنع القادة العرب بأن يفهموا ان العرب أضعف من ان يتولوا بأنفسهم المسؤولية في منطقة تتشابك فيها المصالح مثل فلسطين، وانه توصل إلى الفهم ان عرب فلسطين سيوافقون على وضع قومي(*) للجالية اليهودية في فلسطين إذا حصل السكان العرب على الوضع عينه[١٧].

في القاهرة، تلقى سايكس تحذيراً من كلايتون وأصدقائه في المكتب العربي من الوجود الفرنسي في الشرق الأوسط، لأن هذا الوجود سوف يسبب المشاكل[١٨]. ولكن سايكس، بطيبة قلبه وصفاء

---

(١٥) المرجع نفسه. د. س. ١٤٩ (د.ر. ٥٨٨/ ٢٥).

(١٦) كنفستون ابون هل. جامعة هل. مكتبة براينمور جونز أوراق مارك سايكس. د.د.س.ي (٢) ١٢ ـ ٧.

(*) كان الكلام هنا على «ملة» وهي اصطلاح كان مستخدماً في الامبراطورية العثمانية للدلالة على مجموعة من السكان تُمنح قدراً معيناً من الحكم الذاتي لادارة شؤون افرادها.

(١٧) اوكسفورد. كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط. اوراق مارك سايكس. د. س. ١٤٩. ادلسون، **سايكس**، ص ٢٢٩.

(١٨) ادلسون، **سايكس**، ص ٢٣١.

طويتـه، ظل يعتقـد ان أصـدقـاءه قد وقعـوا ضحايا «الفاشودية» ـ أي الرغبة في ان يبزّوا الفرنسيين على غرار ما فعل كيتشنر في فاشودا ـ وانه ينبغي لأصدقائه ان يظهروا المزيد من الوفاء لحليفتهم، واستمر سايكس في محاولته لجعل بيكو شريكاً حقيقياً، واقترح ان يقوم المندوب الفرنسي بإعداد سياسة مشتركة مع أبناء الشريف حسين بحيث تتمكن بريطانيا وفرنسا من إقامة علاقات تعاونية وبناءة ومتوازية مع الحكام العرب في الشرق الأوسط بعد الحرب. وفي ١٢ أيار (مايو) أبرق إلى لندن قائلاً: «لقد توصل بيكو إلى اتفاق مع ممثلي العرب»[١٩]. وبعد بضعة أسابيع كتب إلى زميل له قائلاً: «أظن ان الفرنسيين مستعدون للتعاون معنا في سياسة مشتركة إزاء الشعب الناطق بالعربية»[٢٠].

(٢)

في النصف الأول من عام ١٩١٧، أرسل الجنرال سير ارشيبالد موري، قائد الجيش البريطاني في مصر ـ أي قوة الحملة المصريـة ـ قواته في هجمات متقطعة باتجاه فلسطين. وسواء أكان السبب ان لنـدن ظلت تصـدر تعليمات ثم تتبعها بتعليمات معاكسة، أو عدم كفاءة الجنرال موري، أو كان السبب كلا الأمرين، فقد أتاح موري للضباط القادة الألمان ولقواتهم التركية الوقت اللازم لإعادة تجميع هذه القوات. ثم انه بعد ذلك سارع إلى شن هجوم ـ على غزة، التي تسيطر على الطريق الساحلية إلى فلسطين ـ في وقت مبكر من صباح ٢٦ آذار (مارس) فمُني بالهـزيمـة. كان كريس فون كريسنشتاين، الضابط الالماني اللامع، قد حصّن غزة تحصيناً جيداً، فكانت الإصابات في صفوف قواته تعادل نصف عدد الإصابات في الجانب البريطاني.

عندئذٍ طلب موري تعزيزات من مصر وشن هجوماً ثانياً على غزة المحصنة في ٢٩ نيسان (ابريل) ومرة أخرى هزمه كريسنشتاين وكانت الهزيمة هذه المرة أشد وقعاً، فبلغت نسبة الإصابات في صفـوف القـوات البـريطانية إلى الإصابات في صفوف القوات التركية نسبة ثلاثة إلى واحد. انسحبت القوات البريطانية منهكة ومحبطة، وفي غضون أسابيع أُعفي سير ارشيبالد موري من قيـادة الجيش البـريطاني في مصر. كان لويد جورج مصمماً على استئناف المعركة من أجل فلسطين في فصل الخريف، ولكن لندن لم تكن، في ذلك الحين، مستعدة لزج قوات جديدة في الحملة.

بعد الهزيمتين اللتين لحقتا بالجنرال موري، خشي سير مارك سايكس ان يعمد الأتراك ـ في المدة السابقة لاستئناف الهجوم البريطاني في الخريف ـ إلى الانتقام من السكان اليهود، والعرب والأرمن الذين كان يسعى هو باسم الحلفـاء إلى كسب تأييـدهم، فأبرق إلى وزارة الخارجية

(١٩) اوكسفورد. كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق مارك سايكس. د.س. ٢٥/٥٨٨.

(٢٠) المرجع نفسه. د.ن. ٢٥/٥٨٨ (د.س. ١/٤٢).

البريطانية مقترحاً ألّا تتابع بريطانيا مشاريعها المتعلقة بالصهيونيين والعرب والأرمن ما دامت هذه المشاريع تعرّض هذه الشعوب للخطر[٢١]. ولم يلق اقتراحه استجابة.

بعد الاحباطات التي سببتها أخبار الحرب ـ فشل الهجوم الفرنسي في شامبانيا، وتمرد وحدات الجيش الفرنسي هناك، وتفكك روسيا، واخفاق الجنرال موري في غزو فلسطين ـ علّق سايكس أهمية أكبر على كسب تأييد شعوب الشرق الأوسط. وقد بدا له، كما بدا لكل من ليو ايميري وزملائه، ان النصر قد لا يكون نهائياً حتى ولو ربح الحلفاء الحرب، وان أية مواقع قد يكسبها الحلفاء في الشرق الأوسط قد تكون عرضة لضغط متواصل من تركيا الخاضعة لسيطرة المانيا، وان تركيا سوف تستند في هذا الضغط إلى مكانة السلطان القيادية بين المسلمين. ورأى سايكس ان ذلك يؤكد ان مطالب الضم التي قدمتها فرنسا ما قبل كليمنصو وايطاليا البارون سونينو هي مطالب تدل على قصر النظر. وفي مذكرة عنوانها «مذكرة بشأن اتفاقية آسيا الصغرى» قال ما يلي:

«يجب حتماً استبعاد فكرة الضم، لأنها مناقضة لروح العصر، وإذا ما حدث في أية لحظة ان وقعت نسخة في أيدي المتطرفين الروس فإنهم قد يستغلونها أشد استغلال ضد دول التحالف كلها، لا سيما ضد المطلب الايطالي الذي يجافي القومية والجغرافيا والعقل السليم، والذي لا يعدو كونه تنازلاً من البارون سونينو لفئة شوفينية لا همّ لها إلّا الهبش».

وتابع قائلاً انه لو تحلّت فرنسا بالحكمة لتعاملت مع مناطق نفوذها في الشرق الأوسط على غرار ما تنوي بريطانيا ان تفعل في مناطق نفوذها، أي ان ترعى فرنسا استقلال العرب في سورية ولبنان، وإلّا فإن على بريطانيا ألّا تفعل شيئاً لمساعدة فرنسا في معالجة المشاكل التي ستجلبها لنفسها.

وكتب سايكس شارحاً رؤيته للمستقبل «أريد أن أرى تفاهماً بريطانيا ـ فرنسيا بالتحالف مع اليهود والعرب والأرمن، يجعل الاسلام عديم الأذى ويحمي الهند وافريقيا من الائتلاف التركي ـ الالماني الذي اعتقد انه قد يستمر بعد غياب أسرة هوهنزولرن»[٢٢].

لقد كان لوجهة نظر سايكس هذه الفوز على وجهة نظر ايميري، وقد كتب ايميري في ما بعد قائلاً: «لا أحد غير اليهود يستطيع انشاء حضارة قوية في فلسطين، بها يستطيع ذلك البلد ان يصمد بذاته في وجه القهر الالماني ـ التركي... وسيكون أمراً قاتلاً إذا ما جُندت المصالح اليهودية في سائر أنحاء العالم إلى جانب الألمان»[٢٣].

---

(٢١) ادلسون، **سايكس**، ص ٢٢٩.

(٢٢) رخوبوت، اسرائيل، محفوظات وثائق وايزمان. أوراق سليدمير. ١٤ آب ١٩١٧.

(٢٣) **مفكرات ليو ايميري**، المجلد ١: ١٨٩٦ ـ ١٩٢٩ أعدها للطباعة جون بارنز وديفيد نيكولسون (لندن: هتشنسون، ١٩٨٠)، ص ١٧٠.

(٣)

انتخب حاييم وايزمان رئيساً للاتحاد الصهيوني البريطاني في شباط (فبراير) ١٩١٧، وبذلك تمكن من ان يقترح رسمياً ان تصدر بريطانيا التزاماً علنياً بتأييد اقامة وطن يهودي في فلسطين. وبعد لقاءاته مع سايكس واصل الاجتماع بمسؤولين بريطانيين، فعبّر هؤلاء عن تعاطفهم مع أفكاره.

إن اللورد روبرت سيسيل، وكيل وزارة الدولة البرلماني للشؤون الخارجية وثالث أبناء اللورد سالزبوري آخر رئيس وزراء في عهد الملكة فيكتوريا، قد غيّر عقيدته وأخلص لعقيدته الجديدة. لقد قُتل خمسة شباب من أسرة سيسيل في الحرب العالمية الأولى، وهذا ما دفع باللورد روبرت إلى إعداد مسودة مذكرة تتضمن الخطوط العامة لخطة من أجل السلام الدائم: هي المسودة الأولى لما أصبح لاحقاً ميثاق عصبة الأمم. ولكن أفكاره عن تقرير المصير أزعجت زملاءه السياسيين الذين تنبهوا إلى ان خطته ستؤدي منطقياً إلى حل الامبراطورية البريطانية[٢٤]. وقد قال أحد كتّاب المقالات المعاصرين باستغراب «لقد حمل الصليب في حملة صليبية دولية غريبة من أجل السلام، فوجد حلفاءه في أماكن يبحث فيها عادة آل سيسيل عن أعدائهم»[٢٥]، وتبنى بالروح الصليبية عينها قضية إقامة فلسطين يهودية.

كان ثمة متعاطف آخر هو سير رونالد غراهام، وهو مستعرب عاد إلى وزارة الخارجية بعد أكثر من عشر سنين من الخدمة أمضاها في مصر، حيث كان هو أول مسؤول بريطاني بحث مع فلاديمير جابوتنسكي انشاء وحدة عسكرية يهودية ضمن الجيش البريطاني. ولدى عودته إلى لندن حث وزارة الخارجية على إعلان تأييدها للصهيونية. ومع ان فكرة التزام بريطانيا بالصهيونية كانت من وحي جيرالد فيتز موريس ومارك سايكس، فقد يكون غراهام مسؤولاً أكثر من أي شخص آخر في الحكومة عن تجسيد هذا الالتزام فعلياً في وثيقة رسمية، بالرغم من ان هناك ميلاً لدى المؤرخين لتجاهل دوره ـ وربما كان السبب انه لم يخلف محفوظات وثائق أو أوراقاً خاصة.

كان غراهام وغيره من المسؤولين في وزارة الخارجية البريطانية يعرفون معرفة أكيدة ان فرنسا هي العقبة على طريق إعطاء حاييم وايزمان الالتزام العلني الذي طلبه. وقد استنتج غراهام، كما استنتج من قبله سايكس، ان ما يضعف الصهيونية هو ارتباطها ببريطانيا حصراً. وقد أقلقه ان يقامر الصهيونيون بكل شيء في رهانهم على امكانية ان تتولى بريطانيا حكم فلسطين ـ جهلاً منه باتفاقية سايكس ـ بيكو السرية التي تعهدت بريطانيا بموجبها ألّا تفعل ذلك. وفي ١٩ نيسان (ابريل) ١٩١٧ كتب غراهام إلى سايكس قائلاً إنه ليس بالأمر المريح ان تعتمد الحركة

(٢٤) كنيث روز، **أواخر أصحاب اسم سسيل** (نيويورك ولندن: هاربر وراد، ١٩٧٥)، ص ١٥٣.

(٢٥) فيليب جاد الله، **رجال ذوو شؤون** (لندن: هودر وستوتن، بلا تاريخ)، ص ١٩٣.

الصهيونية اعتماداً كاملاً على امكانية ان يكون الحكم في فلسطين لبريطانيا[٢٦].

غير انه كان من العسير معرفة كيف يمكن للحركة الصهيونية ان تتجه إلى فرنسا طلباً للتأييد. ففي وزارة الخارجية البريطانية كانوا لا يتحدثون عن الصهيونية إلَّا باحتقار، كما ان شرائح هامة من الرأي العام الفرنسي كانت طوال الوقت تعبر عن عداء للحركة الصهيونية وتعتبرها حركة موالية لألمانيا. ولم تجتذب الصهيونية سوى القليل من تأييد يهود فرنسا، ونتيجة لذلك استخفت الحكومة الفرنسية بقوة هذه الحركة، حتى جاءت الثورة في روسيا فجعلت اليهود يظهرون أهم سياسياً بكثير مما هم في واقعهم. بل ان الأحداث التي وقعت في روسيا جعلت كسب التأييد الصهيوني أمراً مرغوباً فيه، ولكن وزارة الخارجية الفرنسية ترددت في السعي وراء هذا التأييد خشية ان يكون أي التزام بالصهيونية من جانب الحلفاء معادلاً لتخلي فرنسا عن مطالبتها بفلسطين.

هذه المشكلة حلها ناحوم سوكولوف الذي تعمد في مفاوضاته مع وزارة الخارجية الفرنسية ألا يثير مسألة البلد الذي ينبغي ان يتولى الحماية في فلسطين. وهذا ما جعل المسؤولين في وزارة الخارجية الفرنسية يفترضون بقاء الصهيونيين على الحياد إزاء هذا الموضوع. ولم يكن لدى المسؤولين الفرنسيين استعداد لتأييد الصهيونية في فلسطين بعد الحرب ـ ولم يتبادر إلى ذهنهم السماح لليهود بتحقيق وضع قومي منفصل ـ ولكنهم لم يروا ضرراً في تقديم كلمات التشجيع للصهيونيين ما دامت هذه الكلمات بلا معنى، معتقدين ان بالإمكان كسب الذين يؤمنون «بأحلام اليقظة» الصهيونية عن طريق منحهم شكلاً من أشكال التشجيع اللفظي الذي لا يرقى إلى مرتبة الالتزام الحقيقي[٢٧]. ولقاء موافقة سوكولوف على الذهاب إلى روسيا ليستخدم تأثيره على اليهود هناك، سلمه جول كامبون، المدير العام لوزارة الخارجية الفرنسية، بتاريخ ٤ حزيران (يونيو) ١٩١٧ تأكيداً خطياً رسمياً بتعاطف الحكومة الفرنسية، بالنص التالي:

«لقد تكرمت بعرض المشروع الذي نذرت جهودك له والذي يهدف إلى تنمية الاستعمار اليهودي في فلسطين. إنك ترى، فيما إذا سمحت الظروف من جهة، وأمكن الحفاظ على استقلال الأماكن المقدسة من جهة أخرى، ان المساعدة بواسطة حماية الدول الحليفة، في بعث القومية اليهودية في الأرض التي نُفي منها شعب اسرائيل قبل قرون عديدة هي عمل من أعمال اقرار العدل والتعويض.

والحكومة الفرنسية، التي دخلت الحرب الحالية دفاعاً عن شعب هوجم ظلماً، والتي تواصل الكفاح لضمان انتصار الحق على القوة، لا يسعها إلَّا ان تشعر بالتعاطف مع قضيتكم التي يرتبط انتصارها بانتصار قضية الحلفاء.

(٢٦) اوكسفورد. كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق مارك سايكس. د. ن. ٢٥/٥٨٨.

(٢٧) اندرو وكانيا ـ فورستنر، **التوسع الامبراطوري الفرنسي**، ص ١٣٢٩.

يسعدني بذلك ان أقدم لكم هذا التأكيد»[٢٨]. كان تأكيداً دقيق الصياغة. فالأمر الذي أغفله هذا التعهد هو صلب الفكرة الصهيونية: أي بعث الأمة اليهودية في نطاق كيان سياسي خاص بها. علاوة على ذلك، فإن الأماكن المقدسة، التي قضى تعهد التعاطف الفرنسي بأن تبقى مستقلة، هي بموجب التعريف الفرنسي في اتفاقية سايكس ـ بيكو قطاع كبير يشمل معظم فلسطين المأهولة غربي نهر الأردن. وإذا ما طبق ذلك التعريف، يكون التعاطف الفرنسي مع الأمة اليهودية في فلسطين مقتصراً على حيفا، والخليل، وشمال الجليل، وصحراء النقب. أي ان رسالة كامبون كانت، كما أريد لها ان تكون غير ملزمة(*).

على أية حال فإن الفرنسيين تذاكوا على أنفسهم بمناورتهم. فالتأكيد الرسمي الذي صاغوه صياغة حذرة ليكون بلا معنى، سمح للبريطانيين ان يصدروا تأكيداً من جانبهم. وعندما يصبح أمراً معروفاً ان الحلفاء يؤيدون الطموحات اليهودية في فلسطين، مهما كان تعريف هذه الطموحات، يكون للحركة الصهيونية دور هام في انتقاء دولة الحماية، وعندئذٍ ستختار بريطانيا. وهذه مسألة كانت أقل أهمية بالنسبة إلى غراهام وسايكس اللذين كان هدفهما الرئيس في ذلك الحين ضمان وطن لليهود في فلسطين، مما كانت بالنسبة إلى ليو ايميري وأصدقائه، الذين كانت الصهيونية تجتذبهم لأنها بصورة رئيسة تضمن ان تصبح فلسطين بريطانية.

وقد تسلح غراهام وسيسيل بالبيان الفرنسي المكتوب الذي عاد به سوكولوف من باريس فأشار على بلفور في منتصف حزيران (يونيو) ١٩١٧، بأن الوقت قد حان لصدور التزام بريطاني بالصهيونية، كتابة وعلناً. كان بلفور مهيأ لذلك فدعا وايزمان إلى المشاركة في إعداد مسودة وثيقة مناسبة. وهذا ما كان وايزمان وسايكس ينشدانه طوال الوقت.

استمرت عملية إعداد مسودة النص الملائم وتقرير الجهة التي يجب توجيه الوثيقة إليها طوال فصل الصيف حتى شهر أيلول (سبتمبر)، وعندها تولى الأمر ميلنر وليو ايميري. وكانت جميع الشخصيات الحكومية تقريباً التي يحسب لها حساب ميالة للموافقة على البيان المقترح. وسبق لسايكس، بدعم من اورمسبي ـ غور، ان أقنع أمانة سر مجلس الوزراء الحربي بتأييد الصهيونية. أما بلفور، وزير الخارجية، فكان منذ زمن طويل متعاطفاً مع الصهيونية واعتقد الآن بأن على بريطانيا ان تجهر بتأييد الصهيونية، وكان سيسيل وغراهام من محرضيه على ذلك من داخل وزارته. أما سمطس فكان شديد الموالاة للصهيونية. إضافة إليه أخذ ميلنر ومجموعته، ومن ضمنها فيليب كير، أحد العاملين في أمانة سر رئيس الوزراء، ينظرون إلى إقامة فلسطين يهودية على انها مصلحة حيوية للامبراطورية البريطانية. كان رئيس الوزراء دائم

(٢٨) ساندرز، **اسوار القدس العالية**، ص ٥٣٤.

(*) يقال احياناً إن اعلان بلفور كان مبهماً بالمقدار نفسه. ولكن اعلان بلفور، خلافاً لرسالة كامبون، (أ) نُشر (ب) تحدث عن فلسطين كلها (جـ) أشار الى انشاء كيان ليست له هوية قومية يهودية محددة ـ بل أشار الى وطن قومي.

السعي إلى تنفيذ برنامج صهيوني. وفي حين انه لم يظهر اهتماماً بإعلان نيات بريطانيا مسبقاً، فإنه لم يضع أية عقبة على طريق هذا الاعلان من قبل حكومته بمجرد أن يرى زملاؤه فائدة في ذلك.

ولكن ما لبث الاقتراح الداعي بلفور إلى إصدار إعلانه المؤيد للصهيونية، ان واجه معارضة حالت دون اصداره. هذه المعارضة جاءت من كبار الشخصيات في الجالية اليهودية البريطانية. وقاد فريق المعارضة من داخل مجلس الوزراء ادوين مونتاغيو، وزير الدولة لشؤون الهند. كان مونتاغيو، وابن عمه هيربرت صامويل، وروفوس ايزاكس (اللورد ريدينغ) متقدمين على أبناء ديانتهم، باعتبارهم أول ثلاثة من اليهود أعضاء في مجلس الوزراء البريطاني(*). وكان مونتاغيو ثاني أبناء رجل ناجح من رجال المال، حصل على لقب من ألقاب النبلاء، وقد رأى في الصهيونية خطراً على المكانة التي بلغها بجهد كبير هو وأسرته في المجتمع البريطاني. وقد استند في دفاعه عن موقفه إلى ان اليهودية ديانة وليست قومية، والقول بغير ذلك يعني القول بأنه ليس بريطانياً مئة بالمئة.

كان مونتاغيو يُعتبر إلى حد كبير أكثر الشباب كفاءة في صفوف حزب الأحرار، واعتُبر نجاح رئيس الوزراء في انتزاعه هو وتشرشل من اسكويث ضربة معلم سياسية. ولكن مما له دلالته صدور تعقيب سياسي آنذاك (عن اللورد ديربي، وزير الحربية) قال فيه: «إن تعيين مونتاغيو، اليهودي في وزارة شؤون الهند، قد خلق، حسبما أرى، شعوراً بعدم الارتياح في الهند وهنا». غير ان ديربي أضاف: «أنا شخصياً، أحمل فكرة سامية عن كفاءته وأتوقع له النجاح»[٢٩]. ومما أزعج مونتاغيو انه رغم عدم تديّنه، لا يستطيع ان يتفادى وصفه بأنه يهودي. كان مليونيراً وابن لورد انكليزي، ولكن لم يجد مفراً من الانتحاب قائلاً: «كافحت طوال حياتي للهرب من الغيتو»[٣٠].

كانت البيّنات تشير إلى ان مونتاغيو بعدم انتمائه إلى الصهيونية إنما كان يتحدث باسم غالبية اليهود. ففي عام ١٩١٣، آخر تاريخ توفرت فيه أرقام، كانت نسبة يهود العالم الذين أظهروا ولاءهم للصهيونية لا تتجاوز نحو واحد بالمئة[٣١]. وقد أشارت تقارير المخابرات البريطانية إلى انبثاق الشعور الصهيوني خلال الحرب داخل منطقة المحيط المغلق للوجود اليهودي في روسيا، ولكن لا توجد أرقام تثبت ذلك أو تبين عدد اليهود الذين شعروا هذا الشعور[٣٢]. أما في بريطانيا

(*) كان دزرائيلي، بطبيعة الحال، من أصل يهودي، ولكنه تعمد واعتنق المسيحية.

(٢٩) مارتن جيلبرت، **ونستون س. تشرشل: المجلد المرفق**، المجلد ٤، الجزء ١ كانون الثاني ١٩١٧ ـ حزيران ١٩١٩ (بوسطن: هوتن ميغلين، ١٩٧٨)، ص ١٠٧.

(٣٠) ديفيد لويد جورج، **مذكرات مؤتمر الصلح** (نيوهاتن: مطبعة جامعة ييل، ١٩٣٩)، المجلد ٢، ص ٧٣٣.

(٣١) وفقاً لكتاب ليونارد ستين، **اعلان بلفور** (لندن: فالنتاين ميتشيل، ١٩٦١)، ص ٦٦. كان هناك ١٣٠,٠٠٠ من مشتري الشيكل الذين أظهروا ولاءهم. وقدر عدد سكان العالم من اليهود من قبل الكتاب السنوي اليهودي الأميركي لعام ١٩٠٩ ـ ١٩١٠ بـ ١١,٥٠٠,٠٠٠ **الموسوعة البريطانية**، الطبعة الحادية عشرة تحت عنوان: **يهود**.

(٣٢) اشعيا فريدمان، **مسألة فلسطين، ١٩١٤ ـ ١٩١٨، العلاقات البريطانية ـ اليهودية ـ العربية** (لندن: =

فإن اللجنة المشتركة التي تمثل يهود بريطانيا في سائر الأمور المتعلقة باليهود في الخارج، فقد كانت منذ البداية معارضة للصهيونية واستمرت معارضة لها[٣٣].

معارضة مونتاغيو أوقفت كل الأمور. وهذا ما أثار اشمئزاز غراهام، فقال: إن مونتاغيو «علّق» الإعلان المقترح. وقال أيضاً ان مونتاغيو «يمثل جزءاً معيناً من أغنياء اليهود الذين يبدو انهم يخافون طرده هو وأمثاله من انكلترا ويخافون الطلب إليهم ان يذهبوا إلى فلسطين للعمل في المزارع»[٣٤].

حاول تبديد هذه المخاوف موظفون في مراكز دون مستوى مجلس الوزراء حريصون على صدور التزام مؤيد للصهيونية. وكان ايميري يساعد ميلنر في إعادة صياغة مسودة الإعلان المقترح، وقد شرح لأحد أعضاء مجلس الوزراء الفكرة من الإعلان بقوله: إن هذا الإعلان ليس موجهاً في الواقع إلى الرعايا البريطانيين من المذهب اليهودي، بل إلى اليهود المقيمين في بلدان تحرمهم المواطنية الحقيقية، وانه «بصرف النظر عن اليهود الذين أصبحوا مواطنين في هذا البلد أو أي بلد آخـر بالمعنى الكامل للمواطنية، هنالك عدد كبير من اليهود، وبخاصة في بولندا وروسيا، لايزالون يشكلون أمة مختلفة عن غيرها بالمعنى الكامل للأمة»[٣٥]. وبما ان هؤلاء محرومون من ان يصبحوا مواطنين روسيين سوف تتاح لهم فرصة إعادة بناء وطنهم في فلسطين.

بيد ان مونتاغيو كان قليل الاهتمام بوضع اليهود في بلدان أخرى. إن ما كان يعنيه، هو وضع اليهود في المجتمع البريطاني. وشعوراً منه بالخطر يهدد مكانته، قاوم مقاومه شرسة أدت إلى تجميد مداولات مجلس الوزراء في هذه المسألة.

كان مونتاغيو يلقى في موقفه الدعم من اللورد كورزون الذي رأى ان فلسطين فقيرة في ثرواتها ولا تستطيع استيعاب الحلم الصهيوني. أهم من ذلك انه حظي بمساعدة أندروبونار لو ـ زعيم الحزب الرئيسي في الحكومة الإئتلافية والشريك السياسي القوي لرئيس الوزراء ـ وكان بونار لو يحث على التريث، وحجته ان الوقت لم ينضج بعد للنظر في المسألة الصهيونية.

وحـظي مونتـاغيـو كذلك بمساعدة الولايات المتحدة التي ظلت حتى منتصف تشرين الأول (أكتـوبـر) ١٩١٧ تنصـح بالتـريث على سبيـل الحيطة. كان الرئيس ويلسون متعاطفاً مع الصهيونية ولكنه كان يرتاب في دوافع بريطانيا. كان محبِّذاً لفلسطين يهودية ولكنه كان أقل حماسة لفلسطين بريطانية. وفي ما كان مجلس الوزراء البريطاني ينظر في إصدار إعلان بلفور، كان في الوقت نفسـه يلتمس النصـح وبصورة ضمنية التأييد من الرئيس ويلسون. وعندما

= روتلدج وكيغان بول، ١٩٧٣)، ص ١٧٨.

(٣٣) وولتر لاكور، **تاريخ الصهيونية** (نيويورك: هولت وراينهارت وونستون، ١٩٧٢)، ص ١٨٤.

(٣٤) رخوبوت، **اسرائيل**، محفوظات وثائق وايزمان. رسالة سير ر. غراهام إلى الجنرال وينغيت، ٢١ أيلول ١٩١٧.

(٣٥) **مفكرات ايميري**، ص ١٧٠.

وصفت الوزارة البريطانية الإعلان للحكومة الأميركية قالت إنه تعبير عن التعاطف مع الأماني الصهيونية، وكأن الدافع الوحيد للحكومة البريطانية هو اهتمامها بمحنة اليهود المضطهدين. إن الكولونيل هاوس، مستشار الرئيس ويلسون للسياسة الخارجية، ترجم ذلك الوصف كما يلي: «طبيعي ان الانكليز يريدون إغلاق الطريق إلى مصر والهند، ولن يترفع لويد جورج عن استخدامنا لتحقيق خطته»(٣٦).

كان هذا تفسيراً منصفاً لآراء رئيس الوزراء البريطاني وآراء مجموعة ميلنر التي تقدم له المشورة. ويقول حاييم وايزمان ان فيليب كير (المساعد السابق للورد ميلنر والذي عمل سكرتيراً للويد جورج) «يرى في فلسطين اليهودية جسراً يربط افريقيا بآسيا وأوروبا على طريق الهند»(٣٧). ولكن هذا التفسير لم يكن منصفاً لرأي وزارة الخارجية البريطانية التي انحازت إلى الرأي القائل إن صدور إعلان مؤيد للصهيونية سيكون سلاحاً حاسماً ضد المانيا خلال الحرب وبعدها. فوزارة الخارجية كان اعتقادها ان الجاليات اليهودية في أميركا، وفي المقام الأول في روسيا، تملك قوة كبيرة. غير ان السفير البريطاني في بيتروغراد، علماً منه ان اليهود في روسيا القيصرية أقلية ضعيفة ومضطهدة ولا تأثير سياسياً لها، أبلغ وزارة الخارجية ان الصهيونيين لا يستطيعون التأثير في نتيجة الصراع على السلطة في روسيا. بيد ان حكومته ظلت على اعتقادها بأن الجالية اليهودية في روسيا قادرة على إبقاء الحكومة الروسية في معسكر الحلفاء. ومع تعمّق الأزمة في روسيا استبد بوزارة الخارجية البريطانية الإحساس بالحاجة الملحة للسعي في سبيل كسب التأييد اليهودي.

(٤)

الخوف يولد الخوف. فالشائعات التي انتشرت بشأن ما تعتزم وزارة الخارجية البريطانية ان تفعله، أثار فزع الصحافة في المانيا. وفي حزيران (يونيو) ١٩١٧ تلقى رونالد غراهام من حاييم وايزمان عدد جريدة تصدر في برلين معروفة بصلتها الوثيقة بالحكومة، وفيه خبر يقول إن البريطانيين تراودهم فكرة دعم الصهيونية من أجل الاستيلاء على الجسر البري الفلسطيني الواقع على الطريق بين مصر والهند، واقترحت الجريدة ان تفسد المانيا هذه المناورة بأن تكون البادئة بتأييد الصهيونية. (لم تكن الحكومة الالمانية شديدة الاهتمام باتخاذ موقف مؤيد للصهيونية، بل كانت الصحافة الالمانية هي المهتمة بالأمر، ولكن البريطانيين جهلوا ذلك).

في صيف ذلك العام نقل غراهام مخاوفه إلى بلفور. وقد كتب غراهام في مذكرته انه سمع انه سيكون هناك تأجيل آخر من شأنه، حسب اعتقاده «ان يعرض الوضع اليهودي بكامله للخطر».

(٣٦)ستين، **اعلان بلفور**، ص ٥٢٩، ولاكور، **الصهيونية**، ص ١٨١.

(٣٧) **التجربة والخطأ: سيرة حياة حاييم وايزمان بقلمه** (نيويورك: هاربر، ١٩٤٩)، ص ١٧٩.

وأكد ان ذلك يعرض للخطر الوضع في روسيا حيث اليهود جميعهم معادون للحلفاء، كما انه بمقدار أقل سيغضب الرأي العام في الولايات المتحدة. وقال محذراً انه يجب على بريطانيا «ألا تلقي بالصهيونيين إلى أحضان الالمان، لأننا قد نواجه في أية لحظة تحركاً المانياً في المسألة الصهيونية، ويجب ان نتذكر ان الصهيونية ان لم تكن أصلاً فكرة يهودية المانية فهي بأية حال فكرة يهودية نمساوية»[٣٨].

ألحق غراهام بمذكرته قائمة تواريخ تبين مدى تأخير الحكومة لمعالجتها المسألة الصهيونية. وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر) أحال بلفور المذكرة وقائمة التواريخ إلى رئيس الوزراء قائلاً: ان القائمة تبين ان لدى الصهيونيين سبباً وجيهاً للشكوى، وأوصى من جانبه بأن يبحث مجلس الوزراء المسألة بأسرع ما يمكن[٣٩].

بتاريخ ٢٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٧ نشرت جريدة «التايمز» مقالة رئيسة حملت فيها على استمرار التأجيل وقالت إنه ليس سراً ان الحكومة البريطانية وحكومات الحلفاء كانت تنظر في إصدار بيان بشأن فلسطين. وقالت جريدة «التايمز» ان الوقت قد حان لإصدار هذا البيان. وجاء في المقال:

«هل يعجز رجال الدولة عندنا عن إدراك الفائدة الكبيرة التي تجنيها قضية الحلفاء من تعاطف اليهود القلبي في سائر أنحاء العالم نتيجة صدور بيان خالٍ من الإبهام بشأن السياسة البريطانية؟ فالمانيا سرعان ما تبينت الخطر على مشاريعها ودعايتها من جراء الترابط بين الحلفاء والأماني القومية اليهودية، ولم تتوان عن محاولة إفشالنا».

بتاريخ ٣١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٧ تغلب مجلس الوزراء على معارضة مونتاغيو وكورزون وفوّض وزير الخارجية بإصدار صيغة ملطّفة كثيراً لضمانة التأييد التي طلبها وايزمان. وسارع سايكس المبتهج إلى وايزمان ينقل إليه النبأ قائلاً: «دكتور وايزمان، المولود صبي» ولكن الزعيم الصهيوني استاء بسبب تلطيف النص الأصلي إلى هذا الحد[٤٠].

كانت رسالة وزير الخارجية البريطاني المؤرخة في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ موجّهة إلى أبرز اسم بين اليهود البريطانيين وجاء فيها ما يلي:

«عزيزي اللورد روتشيلد، يسرني كثيراً أن أنقل إليكم، نيابة عن حكومة جلالته، إعلان التعاطف مع الأماني الصهيونية اليهودية التالي نصه وقد عرض على مجلس الوزراء فأقره:

(تنظر حكومة جلالته نظرة ايجابية إلى إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستستخدم أفضل مساعيها لتسهيل تحقيق هذا الهدف، على ان يكون واضحاً انه لن يتم عمل شيء يمكن ان يسيء إلى الحقوق المدنية والدينية للسكان غير اليهود في فلسطين أو إلى الحقوق

(٣٨) لندن، مكتب سجلات مجلس اللوردات. مجموعة بيفربروك. أوراق لويد جورج. ف ـ٣ ـ ٢ ـ ٣٤.

(٣٩) المرجع نفسه.

(٤٠) ويزمان، **التجربة والخطأ**، ص ٢٠٨.

والوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في أي بلد آخر). سأغدو ممتناً إذا ما أطلعت الاتحاد الصهيوني على هذا الاعلان».

لم يتوقع زعماء بريطانيا رد فعل معادياً من حلفائهم العرب. كانت فرنسا في نظرهم هي المشكلة الوحيدة في هذا الصدد واعتقدوا انهم حلوا هذه المشكلة. وكتب رئيس الوزراء في ما بعد يقول: «لا يبدو ان فلسطين سببت للزعماء العرب قلقاً شديداً»[٤١]. ونوّه بأن حكومته أطلعت الملك حسين والأمير فيصل على خططها لإعادة خلق وطن يهودي في الأرض المقدسة. ثم أضاف بلهجة حادة: «إننا لن نقيم اتصالاً مع عرب فلسطين لأنهم يحاربوننا»[٤٢].

أرجىء نشر إعلان بلفور حتى يوم الجمعة التالي، وهو يوم صدور جريدة «جويش كرونيكل» الاسبوعية. في هذه الأثناء طغت الأنباء الواردة من بيتروغراد عن استيلاء لينين وتروتكسي على السلطة، على نبأ إعلان بلفور. كانت وزارة الخارجية البريطانية تأمل ان يساعد وعد بلفور في استمالة اليهود الروس إلى جانب الحلفاء وضد البلشفية. وظل هذا الأمل حياً إلى ان ربح البلشفيك بصورة حاسمة الحرب الأهلية الروسية في مطلع العشرينيات من هذا القرن. كانت المعركة ضد البلشفية في روسيا قد بدأت لتوها في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧، ولأن البريطانيين من مؤيدي إعلان بلفور اعتقدوا خطأ ان اليهود الروس كانوا أقوياء ويمكن ان يعودوا بالفائدة على الحلفاء، فقد دفعتهم الأخبار المثيرة الواردة من بيتروغراد إلى تأييد تلك المعركة.

لم تتمكن جريدة «التايمز» حتى ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) من نشر نبأ إعلان بلفور، ولم تنشر تعليقات مؤيدة له حتى ٣ كانون الأول (ديسمبر). وجاءت التعليقات اثر احتفال أقيم في دار أوبرا لندن، نظّمه الإتحاد الصهيوني البريطاني بتاريخ ٢ كانون الأول (ديسمبر). وكان بين خطباء الاحتفال، إضافة إلى الزعماء الصهيونيين، كل من اللورد روبيرت سيسيل، وسير مارك سايكس، ووليم اورمسبي - غور، ومسيحي سوري، وقومي عربي، ومتحدث باسم أرمينيا. كان موضوع الحفل الذي تحدث فيه ببلاغة كثيرون من الخطباء، هو حاجة اليهود العرب والأرمن إلى مساعدة بعضهم بعضاً والسير قدماً في انسجام. والرأي الذي عبّرت عنه جريدة «التايمز» هو «ان حضور ممثلين للشعبين العربي والأرمني من ذوي النفوذ والكلمات التي ألقوها وتأكيداتهم للموافقة على التعاون مع اليهود تكفي في حد ذاتها لتخليد هذا الحفل»[٤٣].

وقالت «التايمز» عن الحفل «ان خصائصه البارزة هي روح التوراة التي سادته والشعور بأنه يجري الاحتفاء بإيمان وعاطفة حماسية، في المكان غير الملائم إلى حد ما في أحد مسارح لندن،

(٤١) لويد جورج، **مؤتمر الصلح**، المجلد ٢، ص ٦٦٩.

(٤٢) المرجع نفسه، المجلد ٣، ص ٧٣٧.

(٤٣) اوكسفورد. كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط، اعلان بلفور.

بقرب تحقيق نبوءة قديمة»[٤٤]. كان لا بد ان يكون الأمر كذلك، إذ ان النبوءة التوراتية كانت الدافع الأول والأكثر ديمومة من بين دوافع عديدة حدت البريطانيين إلى ان يرغبوا في إعادة اليهود إلى صهيون.

لقد عزم رئيس وزراء بريطانيا على تشجيع قيام وطن يهودي في فلسطين في أي حال من الأحوال، وكتب في وقت لاحق يقول إنه كان لا بد لمعاهدة الصلح من ان تنص على ان فلسطين وطن لليهود «حتى ولو لم يكن هناك تعهد أو وعد سابق»[٤٥]. وقال أيضاً ان أهمية إعلان بلفور هي اسهامه في المجهود الحربي، وبفضله قدم اليهود الروس دعماً لا يقدر بثمن للحرب ضد المانيا. وقد وعد زعماء الصهيونية بدافع الامتنان ان يعملوا من أجل انتصار الحلفاء، فوفوا بالوعد. وبعد عشرين سنة، وفي ما كانت الحكومة البريطانية توشك ان تتخلى عن وعد بلفور كتب يقول ان الصهيونيين «وفوا بوعدهم نصاً وروحاً، والمسألة الوحيدة المتبقية الآن هي هل ننوي الوفاء بوعدنا»؟[٤٦]

لقد استهان رئيس الوزراء بالأثر الذي خلفه إعلان بلفور على تسوية الصلح المقبلة. إن طبيعة الإعلان بصفته وثيقة ذات صفة عامة ـ صادرة بموافقة الولايات المتحدة وفرنسا وبعد تشاور مع ايطاليا والفاتيكان ولقيت الترحيب لدى الرأي العام والصحافة في سائر أنحاء العالم الغربي ـ قد جعلت من الإعلان التزاماً يصعب تجاهله عند التفاوض على تسوية الصلح. لقد اكتسب هذا الإعلان حيوية وقوة دفع ذاتية.

(٥)

كان للإعلان أيضاً دور في تنمية الحركة الصهيونية في الجالية اليهودية الأميركية. كانت الصهيونية الأميركية حركة ضئيلة عندما بدأت الحرب. ومن بين نحو ثلاثة ملايين يهودي كانوا آنذاك يعيشون في الولايات المتحدة، لم ينتسب سوى ١٢,٠٠٠ إلى تلك الجماعات التي تنشأ وسرعان ما تنحل، وكان يجمع بينها الاتحاد الصهيوني بقيادته المتسمة بأسلوب الهواة[٤٧]. وكان صندوق الحركة يحتوي على ١٥,٠٠٠ دولار[٤٨]، ولم تتجاوز قط ميزانيتها السنوية مبلغ ٥,٢٠٠ دولار[٤٩]. وأكبر تبرع تلقاه الاتحاد من جهة واحدة لم يتجاوز حتى عام ١٩١٤ مئتي دولار[٥٠].

---

(٤٤) المرجع نفسه.

(٤٥) لويد جورج، **مؤتمر الصلح**، المجلد ٢، ص ٧٢٣.

(٤٦) المرجع نفسه، ص ٧٣٧.

(٤٧) حزقيال رابينوفيتش، **القاضي لويس برانديز: الفصل الصهيوني في حياته** (نيويورك: المكتبة الفلسفية، ١٩٦٨)، ص ٦٩.

(٤٨) مايكل باريش، **فليكس فرانكفورتر وزمانه ـ سنوات الاصلاح** (نيويورك: المطبعة الحرة «فري برس» ولندن: كولبير مكميلان، ١٩٨٢)، ص ١٣٥.

(٤٩) ليونارد بيكر، **برانديز وفرانكفورتر: سيرة حياة ثنائية** (نيويورك: هاربر دراو، ١٩٨٤)، ص ٧٤.

(٥٠) المرجع نفسه.

وكان عدد أعضاء الحركة في نيويورك خمسمئة عضو فقط[٥١].

كان لويس براندايس محامياً ذا مكانة كبيرة في بوسطن لم يسبق ان اقترن اسمه بالقضايا اليهودية بشكل خاص، ولكنه أصبح صهيونياً في عام ١٩١٢ وتولى قيادة الحركة الصهيونية في عام ١٩١٤. وبما انه كان عملاق المفكرين في الحركة التقدمية في السياسة الأميركية، كان الاعتقاد السائد انه يمارس تأثيراً كبيراً على الرئيس ويلسون. وربما كان براندايس أول يهودي يقوم بدور هام في السياسة الأميركية منذ الحرب الأهلية. إن يهودياً واحداً فقط سبق ان كان عضواً في مجلس وزراء الرئيس الأميركي[*]، وها هو براندايس عينه يصبح أول عضو يهودي في المحكمة الأميركية العليا.

كانت الموجات الكبيرة للهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة حديثة عهد، وكان معظم المهاجرين حريصين على تعلم اللغة الانكليزية، والتخلص من لكناتهم وأساليبهم الأجنبية، من أجل ان يصبحوا أميركيين. وكان اليهود المولودون في أميركا أيضاً يرغبون في التخلص من أية وصمة أجنبية ويخافون ان يجعلهم ارتباطهم بالصهيونية يظهرون وكأنهم أقل ولاءً قلبياً للولايات المتحدة.

هذه هي المسألة التي انطلق براندايس لمعالجتها قبل غيرها. وحسب رؤيته للأمر، فاليهود الأميركيون يفتقرون إلى شيء هام متوفر لبقية الأميركيين، هو الماضي القومي. فالآخرون يمكنهم ان يتحدثوا عن وطن للأجداد وان يفخروا به وبأنفسهم. وأبدى براندايس إعجاباً خاصاً بالأميركيين من أصل ايرلندي في هذا الصدد، وبإظهار معارضتهم لاستمرار الحكم البريطاني في ايرلندا.

وإذ زعم براندايس ان هذا النوع من الاهتمام السياسي والعمل السياسي يتفق كل الاتفاق مع الروح الوطنية الأميركية، بل يعززها، فقد أعلن «ان كل أميركي من أصل ايرلندي يسهم في تشجيع الحكم الوطني هو انسان أفضل وأميركي أفضل لأنه يقدم تضحية. وكل اميركي يهودي يساعد في تشجيع الاستيطان اليهودي في فلسطين... هو بالمثل انسان أفضل وأميركي أفضل لأنه يفعل ذلك»[٥٢].

لقد أثرت مثالية براندايس الأخلاقية تأثيراً شديداً في آرثر بلفور عندما زار وزير الخارجية البريطاني الولايات المتحدة في عام ١٩١٧ وبحث فيها مستقبل فلسطين. كذلك، فإن إعلان بلفور وفّر دعماً للحجج التي استخدمها في نداءاته الموجهة إلى الجالية اليهودية الأميركية[٥٣].

لقد تنامى التأييد للصهيونية تنامياً سريعاً سواء كان سبب ذلك هو اعلان بلفور أو كان السبب

---

(٥١) رابينوفيتش، **براندين**، ص ٤.

(*) اوسكار شتراوس وزير التجارة والعمل من عام ١٩٠٦ الى عام ١٩٠٩.

(٥٢) الفوس توماس ميسون، **براندين: حياة رجل حر** (نيويورك: مطبعة فايكنغ، ١٩٤٦)، ص ٤٤٦.

(٥٣) **رسائل لويس د. براندين، المجلد ٤: (١٩١٦ ـ ١٩٢١): القاضي براندين**، أعدها للطباعة ملفيل اورنسكي وديفيد ليفي (الباني: مطبعة جامعة نيويورك، ١٩٧٥)، ص ٣٥٥.

هو زعامة برانديس المهنية والفعّالة. فقد ارتفع عدد أعضاء الاتحاد الصهيوني في عام ١٩١٩ إلى أكثر من ١٧٥,٠٠٠، ولو ان مؤيدي الصهيونية ظلوا أقلية ضمن اليهود الأميركيين وظلوا يواجهون معارضة شرسة من اليهود الأكثر ثراء والأرسخ قدماً في المجتمع ـ وهذه المعارضة لم يتم التغلب عليها في الواقع حتى الأربعينيات من هذا القرن. غير ان برانديس جعل من الصهيونية الأميركية منظمة ذات شأن على غرار ما سبق ان فعله الأميركيون من أصل ايرلندي الذين أيدوا استقلال ايرلندا. وقد ساعده إعلان بلفور في هذا الجهد ـ مع ان وزارة الخارجية البريطانية أصدرت الإعلان لأنها، إلى جانب أمور أخرى، افترضت وجود هذه القوة فعلاً ورأت حاجة إلى استرضائها.

(٦)

سنرى في التأملات التي دوّنها ليو ايميري في مفكرته في نهاية عام ١٩١٧ قدراً من التقدم الذي أحرزته بريطانيا نحو تحقيق أهدافها في الحرب خلال السنة التي انقضت منذ ان حلّ لويد جورج محل اسكويث. فقد استعرض ايميري الماضي وقوّم الانجازات التي تمكن من تحقيقها خلال تلك السنة، فكتب في مفكرته ان أحد إنجازاته الرئيسة في تعامله مع زملائه في الحكومة البريطانية هو «مجموع العمل في اعداد شروط الصلح، مما أقنعهم تدريجاً بأهمية شرق افريقيا، وفلسطين وبلاد الرافدين والنظرة الامبراطورية بصورة عامة»[٥٤].

لم تعد أهداف بريطانيا الرئيسة آنذاك في أوروبا، وهذا ما أشار إليه ايميري. فالدمار الذي أحدثته الحرب في السنوات الثلاث الأولى من الحرب جعل إحراز نصر ذي معنى في أوروبا أمراً مستحيلاً. ذلك ان التحالفات الأوروبية المتحاربة والمتنافسة قد دُمرت. ولم يكن أمراً عملياً البحث عن منطقة في أوروبا لضمها أو الاستيلاء عليها تعويضاً عن خسارة. بل ان تدمير المانيا لا يلبي احتياجات بريطانيا. لقد نبّه سمطس في أحد خطاباته خلال الحرب إلى ضرورة ان تبقى المانيا قوة هامة من أجل الحفاظ على توازن القوى في أوروبا، وهذا كان في مصلحة بريطانيا الحيوية[٥٥].

والسؤال الذي كان مطروحاً للنقاش هو: هل بريطانيا التي أبحرت سفنها في محيطات العالم ودارت حول الكرة الأرضية بقيادة سير فرانسيس دريك، قد هلكت إلى الأبد مع هلاك جيل عام ١٩١٤ على الجبهة الغربية. وكان الرأي ان بريطانيا هذه إذا أمكن احياؤها، فلا بد ان يتم ذلك عن طريق توسع الامبراطورية، في افريقيا جزئياً وفي الشرق الأوسط بصورة رئيسة ـ وكان هذا هو توجه رئيس الوزراء وبطانة ميلنر.

---

(٥٤) **مفكرات ايميري**، ص ١٨٩.

(٥٥) **مختارات من اوراق سمطس**، المجلد ٣: حزيران ١٩١٠ ـ تشرين الثاني ١٩١٨ أعدها للطباعة و. ك. هانكوك وجان فان در بويل (كامبريدج، ١٩٦٦)، ص ٥٠٣.

إن التحول الذي طرأ على النظرة إلى الأمور قد نقل الحرب العثمانية، التي بدأت كحادث عرضي خارج عن سياق الأحداث، من أطراف إلى مركز السياسة العالمية لرئيس الوزراء. لقد قال رئيس الوزراء منذ البداية ان الحرب الكبرى يمكن ان تربحها بريطانيا هناك. وها هو الآن يقول ان أهدافه لما بعد الحرب يمكن ان يربحها هناك أيضاً. لقد شعر بغريزته السياسية انها منطقة يستطيع ان يربح فيها منافع ملموسة لمواطنيه، ورأى ببصيرته الاستراتيجية ـ كما رأى كل من ميلنر، وايميري، وسمطس، وكير، واورمسبي ـ غور ـ ان هذه المنطقة بتوفيرها الجزء الناقص من الخط الممتد من مدينة الكاب إلى الهند. فاستراليا ونيوزيلندا، إنما توفر عمراً جديداً للامبراطورية البريطانية في افريقيا وآسيا والمحيط الهادي. وبعد ان كانت حكومة اسكويث ترى في الهيمنة على أجزاء من الشرق الأوسط شيئاً يمثل فقط رغبة بريطانية، رأت حكومة لويد جورج في هذه الهيمنة أرضاً تحتاجها بريطانيا.

الجزء السابع

غزو الشرق الأوسط

الفصل الاول

في القدس عند حلول عيد الميلاد

(١)

عندما تولى لويد جورج منصبه رئيساً للوزراء في نهاية عام ١٩١٦، بدأ طالع بريطانيا في الشرق يتجه نحو التحسن. كانت أخطاء حكومة الهند وعدم كفاءتها في تسيير حملة بلاد الرافدين ـ الزحف على بغداد عام ١٩١٥ الذي انتهى في ربيع ١٩١٦ بهزيمة واستسلام الجيش الهندي البريطاني في كوت العمارة ـ قد هزت لندن وجعلتها تقوم بحملة تطهير عند القمة. وهكذا فان قائداً جديداً لجيش الحملة، متفهماً لاحتياجاته اللوجستية، استأنف الحملة في عهد وزير دولة جديد لشؤون الهند، ونائب جديد للملك وقائد عام جديد للجيش الهندي، هو الجنرال ستانلي مود الذي قاد الجيش الهندي ـ الانكليزي لمنطقة دجلة، في زحف نحو ولايات بلاد الرافدين في كانون الأول ١٩١٦، واستولى بحملة منهجية على بغداد في ١١ آذار (مارس) ١٩١٧.

ان الاستيلاء على بغداد، العاصمة العريقة التي استمدت ألقها من ارتباط اسمها بقصص ألف ليلة وليلة، قد ألهب خيال رئيس الوزراء الجديد، مع أنه لم يكن واضحاً قط ماذا كانت الغاية من حملة بغداد في اطار الاستراتيجية الشاملة للحرب العالمية. لقد أدخل احتلال بغداد البهجة الى نفس رئيس الوزراء في وقت كان فيه بحاجة ماسة الى البهجة، وألهمته أن يضع نصب عينيه القدس هدفاً للنصر البريطاني العظيم الآتي بعد احتلال بغداد.

ان النجاحات التي حققها جيش دجلة قد طرحت السؤال عما يجب عمله بالولايات العثمانية التي احتلها هذا الجيش. وكانت حكومة الهند، بالرغم من رغبتها في عدم الزام نفسها، تستهدف طوال الوقت أن تكون ولايتا البصرة وبغداد ضمن إطار نفوذها إذا ما سلختا عن الامبراطورية العثمانية. أما سير مارك سايكس وأصدقاؤه في المكتب العربي فقد اعتبروا إدارة هاتين المنطقتين بأسلوب حكومة الهند الأبوي أمراً مرعباً. وقد وجه سايكس مذكرة الى مجلس الوزراء البريطاني كتبها في عام ١٩١٦ محذراً من «أن ترك العمل للهند سيحمل معه الأفكار القديمة عن السود

والبيض، وليس بالامكان أن يُحكم العرب بنهج السود والبيض»[1].

واحتفاءً بالاستيلاء على بغداد أعد سير بيرسي كوكس، كبير الضباط السياسيين في حملة الجنرال مود، مسودة بيان موجه الى الشعب، اقتصر أساساً على الدعوة الى التعاون مع الادارة البريطانية ـ الهندية المؤقتة. ولكن لندن أمرته بعدم اصداره. صيغت بعد ذلك مسودات عديدة في لندن، واختار مجلس الوزراء الحربي، بعد المناقشة، مسودة أعدها سير مارك سايكس كأساس للنص الذي أقر في النهاية. ودعا هذا الاعلان قادة العرب ـ مع أنه لم يكن واضحاً من هم هؤلاء القادة ـ الى المشاركة في الحكومة بالتعاون مع السلطات البريطانية. وتحدث الاعلان ـ على عادة سايكس ـ بعبارات فضفاضة عن التحرير والحرية، وعن أمجاد الماضي، وعظمة المستقبل، وأعرب عن الأمل في أن تتوصل الشعوب العربية الى الوحدة شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً. وأشار، وإن بعبارات غامضة، الى اتحاد كونفيدرالي عربي شرق أوسطي بقيادة الملك حسين ـ المسلم السني، مع أن معظم سكان ولايتي البصرة وبغداد هم من الشيعة، والخلافات بين السنة والشيعة عميقة وتعود الى أكثر من ألف سنة.

اعترض الجنرال مود على مسودة سايكس. ورأى بصفته رجلاً عسكرياً، ان الأمر الجوهري هو اقامة إدارة بريطانية لحفظ الأمن ما دامت الحرب مستمرة. إضافة الى ذلك لاحظ ان الاعلان بعرضه قسطاً من الحكم الذاتي على عرب بغداد، لم ينتبه الى حقيقة أن غالبية سكان المدينة ـ حسب زعمه ـ ليسوا عرباً بل هم يهود(*).

بالرغم من ذلك فرضت لندن المسودة التي أعدها سايكس على الجنرال مود وعلى سير بيرسي كوكس، محدثة بذلك ارتباكاً واسع النطاق. لقد كانت غاية الاعلان ظاهرياً أن يؤكد أن قوات الاحتلال التي جاءت من الهند البريطانية ليست عازمة على أن تحكم بلاد الرافدين، ولكن الاعلان لم يوضح من سيحكم بدلاً منها.

بتاريخ ١٦ آذار (مارس) ١٩١٧ أنشأ مجلس الوزراء الحربي لجنة إدارية لبلاد الرافدين برئاسة اللورد كورزون مهمتها أن تقرر شكل الحكومة التي ستنشأ في الولايتين المستولى عليهما. فقررت اللجنة أن ولاية البصرة يجب أن تصبح بريطانية ـ وليس هندية بريطانية ـ أما ولاية بغداد فيجب أن تنضم الى كيان سياسي عربي أو أن تصبح كياناً سياسياً عربياً خاضعاً لحماية بريطانية، ويجب في هذه الأثناء سحب الأشخاص الهنود من الولايتين المحتلتين.

---

(١) بريتون كوبر بوش، **بريطانيا والهند والعرب، ١٩١٤ ـ ١٩٢١** (بيركلي ولندن: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٧١)، ص ١٢١.

(*) بغض النظر عما اذا كانوا أغلبية في المدينة أو لم يكونوا ـ والموسوعة البريطانية أشارت في ذلك الحين الى انهم لم يكونوا ـ فقد كانت لليهود السيطرة الاقتصادية في بغداد. وكانت بغداد، الى جانب القدس، احدى مدينتين يهوديتين كبيرتين في آسيا، وكانت قبل الف سنة مقر رئيس الديانة اليهودية في الشتات الشرقي ـ أي عاصمة اليهودية الشرقية. وقد عاش اليهود بأعداد كبيرة في بلاد الرافدين منذ سبي بابل ـ نحو عام ٦٠٠ قبل الميلاد ـ أي انهم استقروا في هذه البلاد قبل ألف عام من مجيء العرب في سنة ٦٣٤ ميلادية.

كان الجنرال مود قد أبرق الى رؤسائه ليبلغهم «أن الظروف المحلية لا تسمح باستخدام أحد في مواقع المسؤولية سوى ضباط بريطانيين لديهم الكفاءة للتعامل مع السلطات العسكرية ومع شعب البلاد. وقبل ايجاد أية واجهة عربية حقيقية للكيان، يبدو أمراً جوهرياً ارساء أسس القانون والنظام بصورة صحيحة ومتينة»[٢]. وقد أثار سير بيرسي كوكس المسائل نفسها بطريقة مختلفة عندما سأل عمن سيكون زعيم بغداد العربي.

كان جلياً أن لندن إما أنها غير مدركة أو لم تعط بالاً، لتكوين سكان ولايتي بلاد الرافدين. فالبغض القائم بين الأقلية من المسلمين السنة والأغلبية من الشيعة، والتنافس بين القبائل والعشائر، والانقسامات التاريخية والجغرافية بين الولايتين، وسيطرة الجالية اليهودية تجارياً في مدينة بغداد، هذه الأمور كلها جعلت من الصعب تحقيق حكومة واحدة موحدة لها صفة تمثيلية وفعالة وتحظى بتأييد واسع.

وأثار كوكس مسائل عملية أخرى وملحة كان من الواضح أن لندن لم تفكر بها. فالعمال والفئات الأخرى المساندة وغير المقاتلة في جيش دجلة كانوا من الهنود. فإذا كان مجلس الوزراء جاداً في إصدار الأمر بمغادرة الهنود ولايتي بلاد الرافدين فمن سيحل محلهم؟ علاوة على ذلك، كان النظام القضائي في زمن الحكم التركي في الولايتين يعمل في ظل المحكمة العليا في استانبول ويمنح حق الاستئناف اليها.

أما نظام القضاء تحت حكم الجنرال مود فقد منح النظام القضائي في الهند حقوقاً مماثلة لحقوق المحكمة العليا في استانبول، فإذا قطعت الصلة مع الهند، ما الذي سيحدث لادارة القضاء؟

لم يكن لدى لجنة ادارة بلاد الرافدين أجوبة جاهزة، لأن الادارة العثمانية في البلاد طردت ولم تكن هناك هيئة من الموظفين ذوي الخبرة تحل محل الادارة العثمانية سوى الموظفين القادمين من الهند البريطانية. كانت الحرب مستمرة، وكان لا بد من اصدار الأوامر واتخاذ قرارات إدارية يومية. وكان لا بد من الاهتمام بالمنشآت والخدمات العامة وإدارتها. فمن يفعل كل ذلك؟

اضطرت لندن الى إعادة النظر، وإلى القبول بأن تتولى الادارة حكومة الهند ما دام هناك اتفاق على أن تكون غير دائمة. ان الجنرال مود، الذي صدر إعلان سايكس باسمه، وجد نفسه في وضع الواعظ الذي يبشر بالحكم الذاتي، بينما هو يثني الناس عن ممارسته. إن صيغة الحل الوسط التي توصل اليها البريطانيون ربما كانت تهدف صراحة الى إثارة النقمة والاضطراب: فالسلطات العسكرية والمدنية لدولة الاحتلال، بعد أن تطوعت بإعطاء ما بدا انه تعهد بالاستقلال لمنطقة لم تطلب الاستقلال أخذت تعمل لحجب هذا الاستقلال.

كانت ولايتا بلاد الرافدين أول منطقة من مناطق الامبراطورية العثمانية تستولي عليها بريطانيا في الحرب. واخفاق رئاسة الوزارة البريطانية في التفكير ملياً في التفاصيل العملية لكيفية الوفاء

---

(٢) المرجع نفسه، الصفحتان ١٣٩ ـ ١٤٠.

بالوعود التي قطعت بسخاء الى قسم من السكان المحليين كان أمراً له دلالته، وكان نذير سوء للولايات الأخرى التي ستغزوها بريطانيا، أي فلسطين وسورية ولبنان. وقد أظهر هذا الفشل أن سير مارك سايكس وزملاءه تبنوا سياسات للشرق الأوسط دون أن يأخذوا أولاً بعين الاعتبار هل يستطيعون عملياً في الظروف القائمة تطبيق هذه السياسات، وإذا كانت الظروف تسمح فهل يسمح لهم الضباط البريطانيون في المنطقة بتطبيقها فعلاً؟..

كانت بداية غير ميمونة دلت على مدى جهل الحكومة البريطانية بما أوقعت نفسها فيه عندما قررت أن تأخذ مكان الامبراطورية العثمانية في آسيا. فإذا حدث كل ذلك الارتباك عندما احتلت الهند البريطانية بلاد الرافدين المجاورة لها، فان المنطقي أن نفترض حدوث ارتباك أكبر عندما تزحف مصر البريطانية على منطقة كفلسطين تتشابك فيها المصالح الدولية تشابكاً كبيراً.

(٢)

كان القائد الجديد الذي أرسل الى مصر هو الجنرال ادموند اللنبي، الضابط في سلاح الفرسان الذي خدم وتولى القيادة بامتياز في فرنسا. وقد وقع الاختيار عليه في حزيران (يونيو) ١٩١٧ بعد أن قرر سمطس نهائياً عدم قبول تعيينه. وكانت المهمة التي كلف بها اللنبي من قبل رئيس الوزراء هي أن يغزو فلسطين ويحتلها ويستولي على القدس قبل عيد الميلاد.

لقد بث اللنبي في قوات الحملة المصرية روح الاندفاع والانضباط وروحاً مراسية جديدة. وقد وقع اختياره على الكولونيل ريتشارد ماينرتزهاغن ليرئس المخابرات العسكرية. وكان هذا الضابط قد أظهر تفوقاً في عمل مماثل مع سمطس في شرق أفريقيا. ووقع اختيار ماينرتزهاغن على ويندهام ديدز ليعمل تحت امرته مسؤولاً عن القسم السياسي في الفرقة العسكرية.

أخذ ماينرتزهاغن على عاتقه مسؤولية عمليات التجسس خلف خطوط العدو- هذه العمليات كان القصد منها تمهيد الطريق أمام اللنبي لغزو فلسطين. ومع أن ماينرتزهاغن كان شديد العداء لليهود، فقد كان متأثراً بأهارون أهارونسون الذي نالت شبكته التجسسية في فلسطين اليهودية إعجاب ماينرتزهاغن، باعتبارها لا تقدر بثمن. ولكن أهارونسون دفع ثمناً غالياً لقاء كسب احترام وصداقة المخابرات العسكرية البريطانية: ذلك أن مجموعته التجسسية عرضت المستوطنين اليهود في فلسطين لأعمال انتقامية محتملة - وذلك في أسوأ الأوقات، لأن الادارة العثمانية المحلية كانت عازمة على ضرب الجالية اليهودية بأي حال من الأحوال. ففي ربيع عام ١٩١٧، وعند حلول فصح اليهود، طرد جمال باشا اليهود والعرب من سكان يافا. ولم يكن واضحاً الى أين أراد إرسالهم، ولكنه تحدث حديثاً غامضاً عن المنطقة الداخلية من سورية. لقد أعادت محنة اللاجئين، المحرومين من المتاع والزاد، ذكريات ما حل بالأرمن. وما لبث جمال باشا أن تحدث عن عزمه على ابعاد سكان القدس المدنيين، وغالبيتهم من اليهود. ولم يمنع حدوث المأساة سوى التدخل الحازم من قبل وزارة الخارجية الألمانية.

واجهت الجالية اليهودية في فلسطين خطر كارثة في تلك الظروف إذا ما اكتشف العثمانيون مدى

وفاعلية نشاطات أهارونسون ـ وهذا ما حدث في نهاية الأمر. لقد ألقي القبض على سارة شقيقة أهارون وعدد من شركائها، من قبل الأتراك في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٧ وعذبوا في أثناء استجوابهم، وأعدم بعضهم شنقاً، أما سارة أهارونسون فقد نجحت في الانتحار بعد تعذيب استمر أربعة أيام. وكان ممكناً أن تعقب ذلك أعمال انتقامية ضد اليهود لولا تدخل الألمان وطلعت. والذي حدث هو أن ثلث السكان اليهود فقط بقي في القدس في نهاية عام ١٩١٧ أما بقيتهم فقد ماتوا جوعاً أو فتكت بهم الأمراض.

(٣)

ان ماينرتزهاغن الذي أعجب بفاعلية يهود أهارونسون في اسهامهم بالاستعدادات للغزو البريطاني لفلسطين، كان أقل اعجاباً بفاعلية عرب فيصل.

قلما كانت السلطات المدنية البريطانية في القاهرة تتصل مع توماس ادوارد لورنس ، ضابط الاتصال بينها وبين رجال حرب العصابات الذين يقودهم فيصل. وفي ربيع عام ١٩١٧ اختفى لورنس في الصحراء. ولم تبد السلطات العسكرية البريطانية في القاهرة سوى القليل من الاهتمام بما كان يفعله لورنس وفيصل، بعد أن فقدت في السنة السابقة اهتمامها بالثورة العربية.

كان لورنس قد ذهب بصحبة عودة أبو طايع، زعيم المقاتلين من أفراد تجمع القبائل البدوية في شمال شبه جزيرة العرب، بعد أن ضمن ولاءه بمبلغ ١٠,٠٠٠ جنيه استرليني. كان هدفهما العقبة، ذلك المرفأ الصغير الغارق في السبات عند الطرف الجنوبي لفلسطين، وموقعها عند رأس قناة في البحر الأحمر، ضيقة جداً الى حد أن الأسطول البريطاني لم يجرؤ على دخولها ما دامت بطاريات الشاطىء في أيدٍ عدوة. كان عدد العثمانيين المدافعين عنها بضع مئات ومدافعهم مصوبة الى البحر، ولذلك عزمت عصبة عودة أبو طايع على التسلل من خلف المدافع والاستيلاء على العقبة بهجوم مباغت(*).

قاد عودة الحملة، ولكن لورنس رافقه. وبدهاء البدوي قاد عودة أتباعه من ساحل شبه الجزيرة العربية شمالاً الى الصحراء، حيث صارت تحركاتهم بعيدة عن الأنظار. فلما عادوا الى الظهور في جنوب فلسطين بعد شهرين، كان قدومهم مفاجأة كاملة. وقد تغلبوا في ٦ تموز (يوليو) على حامية العقبة التركية الصغيرة وغير المستعدة. وبالرغم من معاناته شهرين في الصحراء، انطلق لورنس على الفور في رحلة عسيرة وخطرة عبر القفار في أراض تحت سيطرة العدو متجهاً الى السويس للابلاغ عن استيلاء عودة على العقبة. وقد أذهل الجميع عندما برز على حين غرة في

(*) الفكرة كانت فكرة لورنس ، مع أن من الممكن انها خطرة لعودة و/ أو فيصل بمعزل عن لورنس .

صحراء سيناء، متنكراً بلباس عربي، فخلق حالة من الاثارة في مقر القيادة العامة بعيد وصول الجنرال اللنبي لتولي قيادته الجديدة.

كانت للورنس فضائل كثيرة لم يكن الصدق احداها. فقد كان يروي حكاياته المختلفة على انها حقائق. وكان قبل بضعة شهور قد أرسل رسالة الى الجنرال كلايتون ضمّنها ما كان مؤكداً انها رواية من نسج الخيال عن حملة ادعى انه قام بها على مسؤوليته[٣]. وها هو الآن يأتي وفي ذهنه بطولات شخصية حقيقية يرويها ويبالغ في روايتها، إذ جعل مستمعيه يفهمون من روايته انه قام بالدور الرئيس في حملة العقبة. ووصول لورنس ناقلاً أخبار العقبة أنهى تسعة شهور تحول فيها الى بطل عسكري. أما عودة أبو طايع، شيخ عشيرة الحويطات الشرقية، الذي هو في الواقع صاحب الفضل في النصر، فلم يكن اسمه سهل اللفظ من قبل الضباط البريطانيين. لذلك فانهم قالوا، كما قال المؤرخون في ما بعد، ان «لورنس احتل العقبة».

وبغض النظر عمن يستحق الفضل، كان الاستيلاء على العقبة تحولاً في ثورة الحجاز التي ظلت حتى ذلك الحين محصورة داخل شبه جزيرة العرب بسبب الحامية التركية في المدينة المنورة. وصار الآن بامكان الأسطول البريطاني أن ينقل رجال القبائل العرب الى فلسطين، وبذلك صار بامكان قوات الشريف حسين، لأول مرة، أن تصل الى ساحة قتال فعلي في الحرب البريطانية ـ التركية، إذ ان لورنس أقنع اللنبي أن المقاتلين العرب غيرالنظاميين يستطيعون مساعدة القوات البريطانية في الحملتين المقبلتين لاحتلال فلسطين وسورية.

كان فيصل لا يزال في مقر قيادته في الحجاز عندما وافق اللنبي على خطة لورنس لنقله بحراً مع قوة ضاربة صغيرة من رجال القبائل التابعين له، من ساحل شبه جزيرة العرب الذي احتله البريطانيون الى العقبة ـ وهي رحلة بحرية مسافتها ٢٥٠ ميلاً. وفي العقبة تقوم هذه القوة بعملية لتحويل الانتباه على الجناح الأيمن للجيش البريطاني في حملة فلسطين المقبلة التي عزم اللنبي على البدء بها في فصل الخريف. وقبل فيصل بالخطة مع انها تعني عزله عن الحجاز وعن والده وأشقائه. وقد منح رتبة جنرال بريطاني ووضع تحت قيادة اللنبي.

قبل بضعة شهور كان المكتب العربي قد درس المشكلات التي ستنشأ عن أية محاولة لاستخدام قوات فيصل في حملتي فلسطين وسورية. وبتاريخ ١٦ أيار (مايو) ١٩١٧ أبلغ المكتب العربي كلايتون أن بدو فيصل لا يقدرون على الصمود في وجه قوات نظامية، وان ثمة مأخذاً آخر على استخدامهم هو أن ارسالهم الى مناطق الحضر لن يقابل بالترحاب من سكان المدن. وكان حل المشكلة الذي ارتآه المكتب العربي هو تجنيد السوريين الفارين من الجيش العثماني للعمل تحت قيادة فيصل. فذلك من شأنه «أن يغير طبيعة حملة الشريف حسين من سلسلة غارات متفرقة على الخط الحديدي الى محاولة منظمة لتحرير البلد»[٤][*].

(٣) ديزموند ستيوارت،. ت. ا. **لورنس** (نيويورك ولندن: هاربر دراو، ١٩٧٧)، الصفحات ١٩٦٦ ـ ١٩٦٨.

(٤) كيو، مكتب السجل العام. أوراق المكتب العربي. وزارة الخارجية ٨٨٢. المجلد ١٨. الوثيقة تي يو/١٧/٣.

(*) وضع الضباط البريطانيون هذا البرنامج موضع التنفيذ لدى وصول فيصل الى العقبة، وعملوا معه في تقديم =

(٤)

غزا اللنبي فلسطين في خريف عام ١٩١٧. وقد توقع الأتراك وضباطهم القادة الأتراك أن يشن هجومه على مدينة غزة الساحلية، باعتبارها بوابة فلسطين. ولكن دفاعات المدينة والمدافعين عنها كانوا مستعدين استعداداً جيداً، فتصنّع اللنبي مهاجمتها، بينما قامت قواته بعملية التفاف حولها، تسللاً وبسرعة، عبر الصحراء لتهاجم بدلاً منها بئر السبع المدينة الداخلية. وقد بوغتت القوات العثمانية وتراجعت في حالة فوضى.

كان أحد أسباب مباغتة الأتراك خدعة ابتكرها ونفذها ماينرتزهاغن. ففي ١٠ تشرين الأول (أكتوبر) ذهب راكباً حصانه الى المنطقة الفاصلة بين الجيشين. وعندما أطلقت عليه النار دورية من الفرسان العثمانيين تظاهر بأنه أصيب وخلف وراءه محفظة ملوثة بالدم احتوت أوراقاً بدت وكأنها وثائق بريطانية سرية تشير الى أن الهجوم الرئيس سيقع على غزة. وقد كتب لويد جورج لاحقاً: «ان خدعة ماينرتزهاغن قد أكسبتنا المعركة. انه واحد من أكفأ وأنجح الأدمغة الذين صادفتهم في أي جيش من الجيوش. وغني عن القول إنه لم يحصل خلال الحرب على ترقية إلى رتبة أعلى من رتبة كولونيل»[٦].

وبينما كانت قوات اللنبي تندفع على خط غزة ـ بئر السبع، كانت قوات فيصل تناوش الأتراك على الجناح الأيمن للجيش البريطاني. وقد استمتع لورنس ، الرائد ثم العقيد، بحملة مبهجة واكتسب في ما بعد شهرة واسعة ـ ومعها الكثير من الحسد.

قال بريمون، ممثل فرنسا في الحجاز في ما بعد، بدافع الحسد، أن لورنس «يمثل» ٢٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني[٧]. ولكن المبلغ زاد على ذلك: فعند انتهاء الحرب كانت الثورة العربية قد كلفت بريطانيا أكثر من خمسين ضعف هذا المبلغ. ومهما كان المبلغ فقد كان يعتبر ضخماً في تلك الأيام ـ وهو ضخم بصورة خاصة بمقاييس بدو الصحراء. فلم يسبق للقبائل أن عرفت ثروة كالتي جلبها لها لورنس. وفي نهاية الأمر لم تغير هذه الثروة شكل الولاءات القبلية فحسب، بل غيرت أيضاً مظهر الشاب الانكليزي الذي كان آمر الصرف. ان رداءه العربي قد بز

= المشورة المهنية والتوجيه. كان الكولونيل بيرس تشارلز جويس، في موقعه في العقبة، كبير الضباط البريطانيين العاملين في فيلق فيصل بصفة قائد لعمليات الحجاز، وكان مسؤولاً أمام الكولونيل الن داوني، من هيئة أركان اللنبي. وكان داوني على مستوى التخطيط وجويس على مستوى العمليات، أكبر ضابطين في موقع المسؤولية عن الفيلق العربي. وقد كتب في ما بعد الجنرال هاري شوفيل، قائد الجيش الأسترالي في حملتي فلسطين وسورية «ان جويس كان منظم القوة المقاتلة الوحيدة التي لها قيمة حقيقية في كل الجيش العربي، وكان رأيي دائماً أن الفضل يعود اليه أكثر من أي ضابط بريطاني آخر في نجاح عمليات الحجاز»[٥].

(٥) اوكسفورد. كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق اللنبي. د. س. ٢٤٤/٤.

(٦) **مذكرات ديفيد لويد جورج عن الحرب**، المجلد ٦: ١٩١٨ (بوسطن: ليتل وبراون، ١٩٣٧)، ص ٢٠٣.

(٧) الجنرال ا.د. بريمون، **الحجاز في الحرب العالمية** (باريس: بايو، ١٩٣١)، ص ٩.

رداء فيصل جمالاً. وقد سئل أحد شيوخ البدو بعد نصف قرن ان كان يتذكر لورنس فأجاب: «انه الرجل الذي كان يأتي بالذهب»[٨].

كان اعداد الترتيبات اللوجستية لايصال الذهب بسلام الى لورنس يطرح بحد ذاته مشكلة. فليس هناك كثيرون يؤتمنون على حيازة الذهب. وكان ويندهام ديدز يمضي بعد ظهر أيام السبت وهو يرزم شخصياً الجنيهات الذهبية في صناديق خراطيش البنادق ويراقب تحميلها على الجمال لتنطلق في رحلتها الى لورنس في الصحراء.

إلى جانب القبائل التي كان دورها متقطعاً، كان جيش فيصل مؤلفاً من نحو ألف بدوي يرفدهم نحو ٢,٥٠٠ من أسرى الحرب العثمانيين السابقين. وفي بداية الأمر أصيب البريطانيون بخيبة أمل في توقعاتهم أن يجعل أسرى الحرب السابقون من قوات فيصل شيئاً يشبه الجيش النظامي. وقد ذكر أحد ممثلي وزارة الخارجية الأميركية في القاهرة في نهاية عام ١٩١٧ ان جيش فيصل بقي «عاجزاً عن التعامل مع الجنود المنضبطين» ولا ريب في أن تقريره هذا كان صدى للرأي البريطاني الرسمي في القاهرة آنذاك[٩].

كانت هناك خيبة أمل أخرى في أداء فريق الغارات الذي شكله لورنس عندما كان يعهد اليه اللنبي بعملية معينة: فقد كان مطلوباً من هذا الفريق أن ينسف قنطرة عالية لقطع خط السكة الحديدية الذي تستخدمه القوات العثمانية المرابطة في القدس. وقد أخفق لورنس ورجاله في هذه المهمة، ولكن اللنبي بعد أن دفع أمامه الجناح الأيمن للجيش التركي شمال يافا اندفع هو بقواته عبر جبال اليهودية واستولى على القدس قبل حلول عيد الميلاد. ومع أن لورنس لام نفسه لوماً شديداً على هذا الاخفاق، فإن اللنبي لم يوجه اليه أي لوم ـ وقد ظهر ذلك في دعوته لورنس، بصفته ضابطاً من ضباط أركان الجنرال كلايتون الى حضور حفلة دخول مدينة القدس.

(٥)

بتاريخ ١١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٧ دخل الجنرال سير ادموند اللنبي وضباطه مدينة القدس المقدسة مشياً من بوابة يافا. وعند وصولهم الى قلعة المدينة تلا اللنبي بياناً يعلن وضع المدينة تحت الحكم العسكري. وأوضح اللنبي لممثل فرنسا، بيكو، ان المدينة واقعة ضمن المنطقة العسكرية وان السلطة فيها محصورة بالقائد العسكري. وقال انه بصفته القائد العسكري سيقرر مدة بقاء المنطقة تحت الادارة العسكرية حصراً. وأضاف اللنبي انه لن يسمح بإقامة إدارة مدنية إلا عندما يرى أن الوضع العسكري يسمح بذلك. وحتى ذلك الحين تبقى مسألة اتفاقية سايكس ـ بيكو والتصرف النهائي بفلسطين مؤجلة.

---

(٨) ديفيد هولدن وريتشارد جونز، آل سعود: **نشوء وسقوط اقوى سلالة في العالم العربي** (نيويورك: هولت وراينهارت وونستون، ١٩٨١)، ص ٥٣.

(٩) اوكسفورد. كلية سانت انطوني. أوراق وليم بيل. د. س. ١٤٩ د. س. ٢٤٤/ ٤ د.س. ١/١٢٦.

كانت بغية رئيس وزراء بريطانيا في مناسبة عيد الميلاد هي تحرير «أقدس مدينة في العالم». وكتب في ما بعد انه بتحريرها تمكن العالم المسيحي من استرداد أماكنه المقدسة»[10]. وادعى أن الاستيلاء على بغداد والقدس أحدث تأثيراً نفسياً هائلاً، ولكنه أحدث أيضاً تأثيراً مادياً. «ان فضح الخدعة التركية لم يكن مجرد بداية لتصدع ادعاء القدرة العسكرية، ذلك الادعاء الذي أتاح له عدم كفاءتنا في إدارة شؤون الحرب أن يخيفنا سنوات عديدة، بل ان فضح الخدعة التركية في حد ذاته اسهام حقيقي في النصر النهائي»[11].

بعد الاستيلاء على القدس أظهرت قوات فيصل العربية، بقيادة ضباط عرب وبريطانيين، جدارتها في الحرب. هذه القوات كانت تقوم بحملتها من شرق الأردن. وقد واصلت وحداتها المغيرة هجماتها الخاطفة، بينما القوات النظامية، التي دربها جويس وتولى مهمة نقلها زميله هيوبرت يونغ، أبطلت الادعاء ـ الذي كثيراً ما روجه ضباط المخابرات البريطانية في السابق ـ بأنها لا تستطيع الصمود في وجه الجيش التركي. لقد هيأ اللنبي للقوات العربية دوراً هاماً تؤديه في المرحلة التالية من حملته، دور نشر الفوضى في صفوف الأتراك عند الجناح الأيمن للجيش البريطاني.

صار اللنبي في وضع يسمح له بالزحف على دمشق، ومن ثم على القسطنطينية لتوجيه الضربة القاضية الى الامبراطورية العثمانية، ولكن حدث في تلك الآونة ما شل حركته. فقد كانت ألمانيا تستعد لهجوم على أوروبا الغربية، بعد أن استسلمت روسيا، الأمر الذي أتاح للودندورف أن يستعيد الجيوش الألمانية من الجبهة الشرقية. وفجأة إضطر اللنبي الى إعادة جميع قواته البريطانية تقريباً الى أوروبا. وفي أول أيام فصل الربيع عام ١٩١٨ شنت القوات الألمانية هجوماً مباغتاً اخترق خطوط الحلفاء في شمال فرنسا وهدد بكسب الألمان للحرب قبل أن تتمكن النجدات الأميركية من الوصول. ولم يخف عنف هجوم لودندورف حتى فصل الصيف. وفي أثناء ذلك بقي اللنبي في فلسطين وطفق يعيد بناء قواته من أجل المستقبل.

انتظر اللنبي من عيد الميلاد، وحتى نهاية الصيف أن تتاح له فرصة استئناف هجومه، بينما كانت ترتسم داخل الحكومة البريطانية وداخل معسكر الحلفاء خطوط المعركة السياسية بشأن التصرف النهائي بالأراضي التي تؤلف الامبراطورية العثمانية. خلال ذلك الوقت كان أنور باشا يستعد للشروع في هجوم كهجوم لودندورف، لحسابه في الشمال، بهدف الاستيلاء على أراضي الشعوب الناطقة بالتركية في امبراطورية القيصر الروسي ـ أذربيجان وتركستان ـ وربما للزحف بعد ذلك على فارس وافغانستان والهند لتدمير امبراطورية بريطانيا الشرقية بينما جميع القوات البريطانية بعيدة في أوروبا.

---

(١٠) **مذكرات ديفيد لويد جورج عن الحرب**، المجلد ٤: ١٩١٧ (بوسطن: ليتل وبراون، ١٩٣٤)، ص ٩٨.

(١١) المرجع نفسه، ص ٥٧٣.

ان نظرة الى الوراء تبين لنا أن هجوم أنور باشا، كهجوم لودندورف، بدا وكأنه رمية اليائس الأخيرة للنرد. ولكن لم يكن من السهولة بمكان في ذلك الحين تقدير امكانات الامبراطورية العثمانية ونياتها. ثم ان الهجوم العثماني نقل مناطق شاسعة في شمال الشرق الأوسط لم تكن حتى ذلك الوقت موضع تنازع في الحرب، الى دائرة الضوء في الحرب العالمية والسياسة العالمية.

وبينما كان أنور يهاجم في الشمال والشرق، تمكن اللنبي أخيراً من مهاجمة قوات أنور في الغرب.

الفصل الثاني

الطريق الى دمشق

(١)

بين عيد الميلاد عام ١٩١٧ وصيف عام ١٩١٨ أرسى اللنبي الأساس لاستئناف حملته على الأتراك. فقد استعاد في كانون الثاني وشباط خط السكة الحديدية الذي يصل القدس بالساحل وزاد في فروع هذا الخط، لكي يعفي جيشه من الاعتماد على حيوانات الجر والطرق التي أصابها التدمير. وظل يغير على قوات العدو ليفقدها توازنها. وفي أثناء ذلك كان يدرب جنوده الهنود الأغرار استعداداً للحملة المقبلة.

كانت دمشق الهدف التالي على خط زحفه. ودمشق أكثر أهمية حتى من بغداد والقدس في كل عصور التاريخ. ويعتقد انها أقدم مدينة استمرت مأهولة، ولكن أصولها ضاعت في ضباب الزمن. وقد كانت دمشق مدينة ضمن واحة ازدهرت من قبل أن يوجد يهود أو عرب، مسلمون أو مسيحيون، انكليز أو ألمان. والاستيلاء على دمشق من شأنه أن يكمل من الناحية الرمزية ليس فقط الاحتلال البريطاني للأجزاء الناطقة بالعربية من الامبراطورية العثمانية، بل انه يضمن أيضاً مكانة بريطانيا في سلسلة التعاقب الشرعي لفاتحي العالم القدامى الذين ختموا انتصاراتهم بتحقيق السيطرة على واحات سورية.

وقد ادعت بريطانيا انها أكثر من فاتح تقليدي، اذ إنها كانت تعمل نيابة عن مجموعة من القوى والقضايا المترابطة. وكان اللنبي قائداً لقوات الحلفاء، وجيوشه مستعدة للزحف تحت رايات عديدة، بينها الراية التي وضع تصميمها سير مارك سايكس لتكون راية للحسين وللقضية العربية. فألوانها ـ الأسود والأبيض والأخضر والأحمر ـ ترمز الى أمجاد الماضي للامبراطوريات العربية الاسلامية وتدل على أن الحسين هو حامل لوائها المعاصر. والتعديل الوحيد الذي أدخله الشريف حسين على العلم هو تغيير المستطيل الأحمر[1]. وكان سايكس قد أمر بصنع الأعلام من

(١) اوكسفورد. كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق مارك سايكس. د. ر. ٥٨٨/٢٥.

قبل هيئة الامداد العسكرية البريطانية في مصر وبتسليمها الى قوات الحجاز.

إن علم القومية العربية الذي وضع تصميمه بريطاني وصنعه البريطانيون، كان ينبيء بمسألة دقيقة فيما كانت جيوش اللنبي تستعد للزحف على دمشق: هذه المسألة هي مدى إخلاص أو نفاق المسؤولين البريطانيين الذين كان لهم الشأن الأكبر في صياغة السياسة المتعلقة بالشرق الأوسط، في تبنيهم لقضايا مختلفة كان الظن انهم آمنوا بها خلال مسيرتهم. ان سير مارك سايكس، الذي كان قبل عام ١٩١٤ معجباً بالأتراك كشعب مؤهل لأن يحكم غيره، تبدل خلال الحرب فأخذ يناصر قضية تحرير الشعوب من الطغيان العثماني. وبعد أن كان معادياً للسامية أخذ يعبر عن اهتمامه باليهود، شأنه شأن ماينرتزهاغن، الذي كان هو أيضاً معادياً للسامية شديد العداء لها. والموظفون الاستعماريون أمثال ستورز وكلايتون، الذين كان رأيهم دائماً أن سكان المناطق العربية غير قادرين على أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم، ظهروا وكأنهم مؤيدين لمارك سايكس في إشادته بانبعاث الاستقلال العربي. ولم تكن هذه التحولات كلها أصيلة.

عند أحد طرفي الصورة كان سايكس المؤمن بوجوب الوفاء بالتعهدات التي كان هو مسؤولاً الى حد كبير عن اعداد صيغتها. وعند الطرف الآخر كان ضباط العمليات الذين أسفوا لهذه التعهدات وخالفوا أحياناً القضايا التي قطعت باسمها. وقد انتقل سايكس في بداية عام ١٩١٨ الى وظيفة في وزارة الخارجية في لندن تولى فيها مسؤولية السياسة المتعلقة بمسرح الحرب العثمانية.، أما الذين كانوا مسؤولين ميدانياً عن السياسة المتعلقة بمسرح الحرب العثمانية ـ كلايتون في فلسطين، ووينغيت في مصر، وحكومة الهند في بغداد ـ فقد كانت لهم شكوكهم في السياسة المثالية التي تبناها سايكس، مع انهم لم يخبروه بذلك صراحة. وتحت السطح الحضاري للتبدلات في الحكومة البريطانية في عام ١٩١٨، كان ثمة خيط خفي يشده موظفو وزارة الخارجية البريطانية وضباط الميدان في اتجاهين متعاكسين. وهكذا كانت بغداد والقدس، وكذلك دمشق من وراء خطوط الحلفاء، تنتظر كلمة لتعرف مصيرها، غير مدركة أن هناك صراعاً داخل الجهاز البيروقراطي البريطاني قد يقرر هو مصيرها.

(٢)

عمل البريغادير ـ جنرال جيلبرت كلايتون بصفة كبير الضباط السياسيين في قيادة الجنرال اللنبي، ولكنه ظل «الأنا الآخر» السياسي لسير ريجينالد وينغيت، المندوب السامي البريطاني في القاهرة. وبذلك فإنه شغل منصباً قيادياً في تقرير سياسة كل من مصر والسودان وكذلك سياسة جيش الاحتلال في فلسطين. كان كلايتون ضابطاً محترفاً في الجيش اعتاد بحكم حذره المهني أن يمتنع عن التعبير صراحة عن آرائه إذا تناقضت مع آراء رؤسائه. ولذلك فانه كان صريحاً في التعبير عن آرائه لوينغيت الذي كان على وفاق معه، ومتحفظاً في التعبير عنها لسايكس، الذي كان على خلاف معه.

كان كلايتون وستورز يخططان لملكة عربية أو لاتحاد كونفيدرالي عربي توجهه بريطانيا في شرق

أوسط لا مكان فيه لفرنسا (ربما باستثناء لبنان). وقد أنكر كلايتون عداءه لفرنسا. فليست الحكاية - حسب تفسيره - انه يريد استبعاد الفرنسيين من سورية، انما العلة هي في الفرنسيين أنفسهم، لأنهم مكروهون من السوريين، وإذا ما أتيحت لهم الفرصة أن يحكموا سورية فسوف يفسدون الفرصة. وقال كلايتون انه لن يتآمر لكي يسبب هذه النتيجة، وكل ما في الأمرانه يتنبأ بها. وقد كتب الى سايكس في ٢٠ آب (أغسطس) ١٩١٧ قائلاً[٣]: «لا حاجة بك أن تخشى أي توجه فاشودي من جانبي» كل ما في الأمر انه كان يخشى أن يوجه اللوم الى بريطانيا إذا فشلت فرنسا، وقد قال لسايكس ان من المهم إقامة الدليل الذي يبين أن الخطأ ليس خطأ بريطانيا.

أنكر كلايتون معاداته لفرنسا، ولكنه اعترف بأن لديه تحفظات تجاه حلفاء بريطانيا الآخرين في الشرق الأوسط. فحتى بمقاييس ذلك الزمن كان كلايتون وزميله وينغيت يميلان ميلاً شديداً الى معاداة اليهود. وكان وينغيت يوجه اللوم الى اليهود في التحريض على نشوب الحرب العثمانية. وفي عام ١٩١٦ قال كلايتون في تقرير الى وينغيت ان اليهود وراء حركة عقد صلح مع الامبراطورية العثمانية[*].

ولكن عندما تطور الحديث عن موضوع الصلح مع تركيا على أساس حل وسط في عام ١٩١٧، احتج كلايتون قائلاً ان بريطانيا لا تملك الحق الأدبي في التفاوض «لأننا ملتزمون بتأييد العرب، والسوريين، واليهود، والأرمن» ولذلك علينا أن نمضي قدماً لاحراز نصر كامل[٤]. وفي الوقت عينه كان معارضاً للدخول في هذه الالتزامات بالذات ومن ضمنها الالتزام بالصهيونية. وبينما كانت مسودة إعلان بلفور قيد الاعداد، كتب الى سايكس قائلاً انه من الأفضل ابقاء أهارون أهارونسون واليهود «في اللعبة» من دون اصدار أي بيان عن نيات بريطانيا[٥]. وأضاف أن السياسة تتجه الى استبعاد اليهود والعرب من المجهود الحربي. وبما أنه حذر بطبيعته، فلم ير حاجة في أي حال من الأحوال لاعطاء تعهدات مسبقاً.

---

(٢) المرجع نفسه، (د. ر. ٥٨٨/٢٥) د. س. ٤٢/١

(*) كان كلايتون في لندن في صيف ١٩١٦ عندما دعا اللورد لانسداون، زعيم حزب المحافظين، سراً الى صلح يقوم على حل وسط. ولدى عودته الى القاهرة كتب الى وينغيت قائلاً: «ان أحد الانطباعات التي حصلت عليها والتي تثبت ما كنت أظنه دائماً، الأمر الذي أعرف انه يهمك، هو نفوذ اليهود الواسع النطاق. انه موجود في كل مكان ودائماً يدعو الى الاعتدال. انهم لا يريدون أن يروا سقوط أحد. هنالك يهود انكليز ويهود فرنسيون، ويهود ألمان، ويهود نمساويون، ويهود من سالونيكا - ولكنهم جميعاً يهود. انك تسمع الحديث عن الصلح وتجد بشكل عام أن اليهودي وراء هذا الحديث. وانك تسمع أيضاً حديثاً موالياً للاتراك وحديثاً عن رغبة في صلح منفرد مع تركيا - ومرة أخرى اليهودي وراء ذلك (انه أصل حركة الاتحاد والترقي)»[٣].

(٣) المرجع نفسه، رسالة سير جيلبرت كلايتون ٣ - ٨ - ١٦. د. ت. ٢/١٠٧ سي. جي. (د.س ٤٢/١).

(٤) رخوبوت، **اسرائيل**، محفوظات وثائق وايزمان. من كلايتون إلى ديدز ٦ أيلول ١٩١٧.

(٥) اوكسفورد. كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق مارك سايكس (د.ر. ٥٨٨/٢٥) د.س. ٤٢/١.

وبعد انقضاء شهر على إصدار إعلان بلفور كتب كلايتون الى سايكس مشيراً الى أن اصداره ربما كان غلطة:

«لا أعرف معرفة تامة مقدار وزن الصهيونيين، وخصوصاً في أميركا وروسيا، ولا أعرف ما يترتب على ذلك من ضرورة اعطائهم كل ما يطلبون، ولكن لا بد من أن أشير الى أننا إذ ندفعهم بقوة كما نبدو اننا نفعل، انما نجازف بامكانية جعل الوحدة العربية كأنها أمر واقع وكأنها موجهة ضدنا»[٦].

على أية حال لم يكن كلايتون موالياً للعرب بمعنى تحبيذ الاستقلال العربي. بل على العكس من ذلك، اذ انه اقترح هو ووينغيت في مطلع عام ١٩١٧ الغاء استقلال مصر الذي كان استقلالاً اسمياً والتوجه نحو ضم مصر ـ وهو رأي عارضته وزارة الخارجية البريطانية بنجاح. وقد كتب آنذاك الى سايكس لدعم اقتراحه ولانتقاد المسؤولين في لندن الذين حالوا دون تنفيذه، فادعى:

«إنني أعارض سياستهم معارضة شديدة، ولكن سجّل كلامي، انني أعرف اني على صواب. فكل هذا الهراء عن السلاطين والحكم الذاتي في مصر هو كلام تافه. انهم غير مستعدين لذلك، فإذا كنت صاحب قصر فان كل ذرة من السلطة والحكم الذاتي تظن انك تعطيها للشعب، ستذهب مباشرة الى أيدي السلطان ووزيره لاستخدامها ضدك. ان النظريات الجميلة كلها حلوة جداً، ولكن الحقائق القاسية تبقى قائمة»[٧].

ومع أن كلايتون كان أول من هوّل في أمر الجمعيات السرية العربية، حتى من قبل نشوب الحرب العثمانية، فقد تجاهل دائماً ما أبلغته هذه الجمعيات: أي انها لا تريد أن يحكمها مسيحيون أو أوروبيون حتى ولو كانوا بريطانيين، وقد جاء ما يذكّر بذلك في مطلع عام ١٩١٨ ضمن الحقيبة الدبلوماسية المرسلة من مدريد، حيث التقى السفير البريطاني مع عزيز المصري، زعيم احدى الجمعيات السرية، وقال السفير انه تلقى من المصري اقتراحاً بتنظيم الاطاحة بحكومة أنور وطلعت في القسطنطينية، على أن يعاد تنظيم الامبراطورية العثمانية على قاعدة الفيدرالية وأن يعرض الحكم الذاتي على العرب وغيرهم، ويتبع ذلك التوفيق بين الامبراطورية العثمانية المعاد تنظيمها والدول الحليفة[٨]. وقد سبق لعزيز المصري أن قال مثل هذا الكلام مراراً لكلايتون في القاهرة عند بداية الحرب. ولكن لا يبدو أن كلايتون فهم أن الذين يتحدث عزيز المصري باسمهم يقبلون أن يحكمهم الباب العالي التركي ويرفضون أن يحكمهم المعتمد البريطاني المقيم. والشيء الذي كان يقترحه كلايتون ـ أي أن يكون الشرق الأوسط العربي محمية بريطانية ـ هو ما أشار المصري الى أنه غير مقبول اطلاقاً.

وهكذا فان كلايتون، الضابط الذي كان يقدم النصح الى اللنبي بشأن السياسات الواجب

---

(٦) المرجع نفسه، (د.ن. ٥٨٨/٢٥) د.س. ١٤٩.

(٧) المرجع نفسه (د.ن. ٥٨٨/٢٥) د.ت. ٩٧/٨٢.

(٨) كيو. مكتب السجل العام. مجلس وزراء الحرب، لجنة الشرق الأوسط. سي. اي. بي. ٢٧/٢٣ ص ١٥٤.

اتباعها في البلدان المحتلة، أي فلسطين وشرق الأردن ولبنان وسورية، والذي كان يدعي أنه ليس عدواً لفرنسا ويصر على انه صديق الصهيونيين والعرب، كان عملياً يعارض طموحات هذه الجهات الثلاث.

(٣)

كان سير مارك سايكس مبتدئاً في العمل الحكومي ـ في عام ١٩١٧ تولى منصباً تنفيذياً مدة سنتين فقط ـ وكان ذا شخصية متقلبة تظل نهباً للحماسة المفاجئة. وكما ذكرنا سابقاً، سرعان ما كان يتبنى قضية أو يتخلى عنها. ولكنه بالرغم من عدم ثباته على حال، لم يكن عديم الأمانة: فهو لم يكن ينافق أو يخفي مشاعره. وبعد أن تحول من معاد للعرب، ومعاد لليهود، ومعاد للأرمن الى موالٍ للعرب ولليهود وللأرمن، لم يعرف سوى طريق واحدة ليكون وفياً مع أصدقائه الجدد ـ ومن كل قلبه.

كان سايكس يؤمن بالوفاء بالوعود التي قطعها للعرب واليهود والأرمن والفرنسيين، وظل يجهد في العامين ١٩١٧ و١٩١٨ للتوفيق بين هذا الائتلاف المتباين الأطراف. وقد كتب حاييم وايزمان في وصف مناقب سايكس البارزة قائلاً: «لم يكن ثابتاً جداً أو منطقياً في تفكيره، ولكنه كان كريماً وعطوفاً»[٩]. ونظراً لدوره في المساعدة على تحقيق أماني اليهود القومية، كان ملائماً للزعيم الصهيوني ناحوم سوكولوف أن يطلق على باب مكتب سايكس اسم «باب الأمل»[١٠]. أما ضمن الحكومة البريطانية فكان ثمة من يعترض على هذا الكرم نحو الأجانب. وحقيقة الأمر أن مشكلة سايكس الرئيسة كانت أن يضمن تأييد زملائه الذين كانت تحيرهم وجهات نظره ـ كانت تحيرهم إذ لم يخطر في بالهم، كما يبدو، انه وفق مقاييسهم انسان ساذج.

أحد جوانب مشكلة سايكس انه لم يكن يعرف «مَنْ من زملائه يؤيد ماذا». ولم يكن يفهم أن بعضهم يخفي دوافعه وخططه. وكان يشعر أن باستطاعته في الاجتماعات والمراسلات السرية مع زملائه المؤتمنين في الحكومة البريطانية، أن يعبر عن وجهات نظره بصراحة وبالكامل، وافترض خطأً أن شعورهم مماثل لشعوره. كان الموظفون المدنيون وضباط الجيش المحترفون أمثال كلايتون يتصفون بالحذر بحكم المهنة، وهم، خلافاً لسايكس، يميلون الى عدم اظهار أدوارهم. وكان سايكس عضواً في مجلس العموم، وحرفته هي القاء الخطب. أي انه بحكم المهنة يتكلم، بينما رجال مثل كلايتون يحتفظون بآرائهم بحكم المهنة أيضاً.

عند عودة سايكس الى لندن في صيف ١٩١٧ اكتشف أن موظفي وزارة الخارجية المؤيدين للعثمانيين، بالاشتراك مع هنري مورغنتاو السفير الأميركي السابق في القسطنطينية، حاولوا في غيابه أن يفاوضوا بشأن صلح منفرد مع تركيا ـ وقد أجهضت هذه المحاولة نتيجة المقاومة

(٩) **التجربة والخطأ: سيرة حياة حاييم وايزمان بقلمه** (نيويورك: هاربر، ١٩٤٩)، ص ١٨١.

(١٠) روجر ادلسون، **مارك سايكس: لوحة هاوٍ** (لندن: جوناثان كيب، ١٩٧٥)، ص ٢٦٤.

السريعة التي أبداها حاييم وايزمان وآخرون. وقد كتب سايكس الى كلايتون قائلاً: «تبين لي عند وصولي أن وزارة الخارجية كانت تعمل بتؤدة لتدمير كل ما فعلته في السنتين الماضيتين. أي انها كانت تؤجج المشاعر المعادية للتحالف (يقصد المشاعر المعادية لفرنسا) وتدفع الى مفاوضات منفصلة مع تركيا. والحقيقة اني وصلت في الوقت المناسب. ومن حسن الحظ أن الصهيونية حافظت على وضعها...»، كان على صواب في ما يتعلق بالصهيونية وكان مخطئاً في ما يتعلق بوزارة الخارجية التي لم تكن معادية لفرنسا. فان الجهة التي كانت معادية لفرنسا هي المكتب العربي تحت اشراف كلايتون، ذلك المكتب الذي أوجده سايكس نفسه.

كان ديفيد هوغارت مدير المكتب العربي قد جاء الى لندن في عام ١٩١٧ قبيل عودة سايكس، ونشط وراء الكواليس في مقاومة اتفاقية سايكس ـ بيكو ومقاومة وجود دور لفرنسا في الشرق الأوسط، ونشط أيضاً في الدعوة الى بسط حماية بريطانية على اتحاد كونفيدرالي عربي بزعامة الشريف الحسين. سراً، كانت وجهات نظر جيلبرت كلايتون تكاد تكون مطابقة لوجهات النظر التي يعبر عنها هوغارت، وهو رجل أكثر صراحة، ولم يكن سايكس يعرف هذا التطابق في وجهات النـظر، فكتب الى كلايتون قائلاً: «وصل هوغارت وأفسد الأمور بكتابة مذكرة معادية لفرنسا ومعادية للاتفاقية. لقد سكب ماءً بارداً على الحركة العربية ونشط من أجل... مكة بريطانية» وتابع سايكس مغتبطاً: «لقد نال عقوبته...».

وإذ كرر سايكس القول: «ان الشيء المهم هو ألا نرضخ اطلاقاً للفاشودية، فرنسية كانت أم بريطانية»، قال: انه وبيكو ينويان حمل الحكومتين الفرنسية والبريطانية على أن تكونا صادقتين احداهما مع الأخرى وأن تكونا صادقتين مع العرب: «... إذ ليس هناك سوى سياسة واحدة ممكنة، الوفاق أولاً وأخيراً والدولة العربية ابنة هذا الوفاق». وكان رأيه أن العرب أيضاً يجب ضبطهم وحملهم على أن يفهموا أنه لا يجوز لهم أن يحاولوا شق التحالف الانكليزي الفرنسي. وقال في رسالته الى كلايتون: «اطلب الى جماعتك الانكليز أن يوضحوا هذا الأمر للعرب، وعدم السماح لهم بقبول المداهنة على طريقة (أنت رجل طيب جداً وهو رجل سيىء جداً)، وسأذهب الى باريس لأجعل الفرنسيين يؤيدون القضية العربية باعتبارها أملهم الوحيد. ان الاستعمار جنون، وأعتقد أني وبيكو قادران على اثبات ذلك لهم»[١١]. ويبدو ان سايكس لم يكن يرتاب في أن بيكو نفسه ظل استعمارياً يعتبر بريطانيا منافسة لبلاده في الشرق الأوسط، ولم يكن يرتاب أيضاً في أن كلايتون كان يأمل بابقاء فرنسا خارج المنطقة كلياً.

لقد تبين أن كلايتون لم يكن مستعداً حتى للعمل مع بيكو، وقد احتج على تنفيذ اتفاقية ـ تم التوصل اليها مع الفرنسيين في عهد حكومة اسكويث ـ تنشأ بموجبها إدارة انكليزية ـ فرنسية مشتركة في المناطق المحتلة خلال الحرب في الشرق الأوسط. وقد أكد بيكو، بصفته ممثل فرنسا لدى قيادة الجنرال اللنبي، ان سير ادوارد غراي وعده بالادارة المشتركة. ولكن كلايتون كتب

(١١) كنغستون ابون هل. جامعة هل. مكتبة براتيمور جونز. أوراق مارك سايكس. د.س. ٤٢/١ د.ر. ٥٨٨/٢٥.

الى سايكس قائلاً: «إذا كان الأمر كذلك فأنا لم أسمع شيئاً عنه، ولا يسعني إلا أن أحتج بشدة على ترتيب كهذا الترتيب الغادر والذي لا يمكن تطبيقه»[١٢]. على أية حال، مارس الجنرال اللنبي سلطته فأرجأ النظر في مثل هذه الأمور ريثما يكون الوضع العسكري في نظره ملائماً لذلك، الأمر الذي ألغى بالنتيجة تلك الاتفاقية الى حين.

وفي ما يخص العرب واليهود والأرمن، عبر كلايتون عن وجهات نظره لسايكس بعبارات أكثر تحفظاً. ففي الأسبوع الذي أعقب نشر اعلان بلفور، أرسل سايكس المتهور برقية كتبت بأسلوب الرموز (الشيفرة) الى كلايتون غير المتحمس يبلغه فيها أن الحركة الصهيونية مستعدة أن تعمل نيابة عن العرب والأرمن وانه هو، أي سايكس، يقوم بتشكيل لجنة مشتركة توحد الفئات الثلاث[١٣]. وسيمثل الصهيونيين حاييم وايزمان، ويمثل الأرمن جيمس مالكولم، أما العرب فسيمثلهم بصورة مشتركة مسيحي سوري ومسلم عربي. وأضاف سايكس ان من المهم أن ينضم عرب آخرون لأن ذلك يساعد العرب في كل مكان.

بعد بضعة أسابيع أبرق سايكس الى كلايتون من جديد ليبلغه أنه أقنع القيادة الصهيونية بأن تنهج نهجاً قوياً في تأييد العرب[١٤]، وطلب الى كلايتون أن يبلغ الجماعات العربية السورية في القاهرة، انه إذا ما استحوذ الأتراك والألمان على الدعم الصهيوني فسيكون ذلك وبالاً عليهم وعلى كل جهة أخرى ترتبط آمالها بالحلفاء. كان كلامه هذا يعني ضمناً أن إعلان بلفور صدر لمصلحة العرب ومصلحة بريطانيا أيضاً. وبعيد إرساله البرقية الى كلايتون وجه سايكس رسالة الى بيكو يبلغه فيها أن المصالح العربية ستكون مصونة صيانة كافية وأن اليهود في فلسطين سيوجهون اهتماماً شديداً الى المصالح العربية[١٥]. ووجه سايكس أيضاً رسالة الى كلايتون يبلغه فيها أن الزعماء الصهيونيين والأرمن متفقون اتفاقاً تاماً وان من المهم أن ينضم الزعماء العرب الى «التجمع»[١٦].

سكب كلايتون في رده البرقي ماءً بارداً على اقتراح سايكس إذ قال له: «بالرغم من كل الحجج فإن مكة تكره اليهود والأرمن ولا ترغب في أن تكون لها علاقة معهم، أما عرب سورية وفلسطين فانهم يخافون أن تتكرر قصة يعقوب وأخيه عيسو. وفي كل الأحوال، ان قيام تجمع عربي - يهودي - أرمني هو أمر غريب على أية تجربة سابقة وغريب على الشعور الحالي، ولذلك يجب أن نسير بحذر شديد»[١٧]. وأضاف ان ارسال وفدٍ عربي الى لندن حسب طلب سايكس

---

(١٢) رخوبوت، اسرائيل. محفوظات وثائق وايزمان. من كلايتون إلى سايكس ١٥ كانون الأول ١٩١٧.

(١٣) المرجع نفسه، من سايكس إلى كلايتون، ١٤ تشرين الثاني ١٩١٧.

(١٤) المرجع نفسه، من سايكس إلى كلايتون، ١ كانون الأول ١٩١٧.

(١٥) المرجع نفسه، من سايكس إلى بيكو، ١٢ كانون الأول ١٩١٧.

(١٦) اوكسفورد. كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق مارك سايكس. د. س. ٤٢/١ د.ن. ٢٥/٥٨٨.

(١٧) المرجع نفسه، (د.س. ١٤٩) د.س. ١٦١.

ليس أمراً عملياً لأن العرب منقسمون على أنفسهم انقساماً شديداً.

بعد بضعة أيام كتب كلايتون الى سايكس، ولكن بلهجة أكثر استرضاء فقال: «أفهم الحجج التي تقدمت بها بشأن قيام تجمع عربي - يهودي - أرمني والفوائد التي ستنجم عنه إذا أمكن تحقيقه. سنقوم بالمحاولة، ولكن يجب أن نقوم بها بحذر شديد، وأقول صادقاً إني لا أرى فرصة كبيرة لنجاح حقيقي. إذ انها ستكون محاولة لكي نبدل خلال بضعة أسابيع شعوراً تقليدياً عمره قرون». وحذر كلايتون بصورة خاصة من الجانب اليهودي في التجمع وأضاف: «علينا أن نفكر هل يتطلب الموقف اعطاء اليهود مزيداً ومزيداً من التأييد مجازفين بتنفير العرب في لحظة دقيقة»[١٨].

في اليوم التالي كتب سير ريجينالد وينغيت، المندوب السامي في مصر، وهو أيضاً أقرب المقربين الى كلايتون - الى اللنبي قائلاً: «إن مارك سايكس يندفع وراء (اسرافه في الكلام) في ما يخص الصهيونية، وإذا ما لم يتمهل قليلاً فقد يقلب العربة من دون قصد. بيد أن كلايتون وجه اليه رسالة ممتازة، واني آمل أن يكون لها تأثير مهدىء»[١٩].

مهما يكن من أمر فقد عقد كلايتون اجتماعاً مع ممثلي سورية في القاهرة، وفقاً لطلب سايكس، ويبدو انه قال لهم، بناءً على التعليمات التي تلقاها، انه ما لم يتحقق الحصول على التأييد اليهودي للحلفاء فإن القضية العربية، المرتبطة أيضاً بالحلفاء، لن يكون لها حظ من النجاح. وأبلغهم أيضاً أن اليهود راغبون في أن يكون لهم وطن في فلسطين ولكن ليست لديهم النية في أن يقيموا دولة يهودية هناك[٢٠].

كان رد العرب السوريين ايجابياً، ونقل تقرير أرسله المكتب العربي الى كلايتون عن متحدث باسم اللجنة السورية قوله: «ان أعضاء اللجنة مدركون تمام الادراك أن السياسة الوحيدة والفضلى التي يجب أن يتبعوها هي سياسة التعاون مع اليهود وفق الخطوط التي اقترحتها أنت. وقد أكد لي أن السوريين متفهمون تماماً لقوة اليهود ومركزهم ويودون الآن نشر دعاية تشدد على الاخوة والوحدة السورية - اليهودية في ما يتعلق بفلسطين»[٢١].

أبلغ كلايتون سايكس اعتقاده بأن اليهود والعرب يتقاربون فعلاً، وقال انه أصدر تعليماته الى لورنس، ضابط الاتصال البريطاني لدى فيصل، بأن يقنع فيصل بالحاجة الى إنشاء تحالف مع اليهود[٢٢].

---

(١٨) رخوبوت، اسرائيل. محفوظات وثائق وايزمان. من كلايتون إلى سايكس، ١٥ كانون الأول ١٩١٧.

(١٩) المرجع نفسه، من وينغيت إلى اللنبي. ١٦ كانون الأول ١٩١٧.

(٢٠) اوكسفورد. كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط. اوراق وليم بيل. د.س. ٥٢/١٢٥، د.س. ١/١٢٦ د.س. ٩٢/١٥١.

(٢١) كيو. مكتب السجل العام. أوراق المكتب العربي. وزارة الخارجية ٨٨٢. المجلد ٧ آ الوثيقة ١٩ آ الصفحتان ٤ - ٥.

(٢٢) المرجع نفسه، المجلد ٢٤، الوثيقة ٣٦٧٥٧.

غير أن المسؤولين البريطانيين لم يحاولوا عند إدارة المناطق المحررة في فلسطين أن يستفيدوا من هذا التوجه الايجابي. ومع أن إعلان بلفور نشر في لندن قبل شهر من دخول اللنبي الى القدس، فقد رفضت السلطات العسكرية البريطانية أن تنشره في القدس. وهكذا فإن إعلان بلفور لم يدخل في سياسة الادارة العسكرية المؤقتة التي أقامها اللنبي برئاسة رونالد ستورز، الذي امتنع عن إثارة أية مواضيع قد تسبب الاضطراب ما دامت الحرب مستمرة. وقد أبلغت مخابرات القاهرة وزارة الخارجية البريطانية انه يجب رفض طلبات اليهود التي يقدمونها للاستيطان في فلسطين ريثما يصل الوضع العسكري الى حل وريثما تنشأ منظمة لمعالجة مختلف المشاكل التي يمكن توقع نشوئها[٢٣].

كان هناك ميل واضح لدى موظفي الادارة العسكرية للاعتقاد بأن المسؤولين في لندن لم يقدروا الصعوبة الحقيقية جداً في حمل مسلمي فلسطين على تقبل امكانية زيادة الاستيطان اليهودي في البلاد. ولذلك أعطى موظفو الادارة العسكرية الانطباع بأنهم غير مستعدين لتنفيذ وعد بلفور، ولاحظ بعض المراقبين أيضاً ميلاً لدى هؤلاء الموظفين لتفضيل المسلمين، الذين عوملوا باعتبارهم «سكان البلاد الأصليين»، على المسيحيين واليهود الذين كانت هناك صعوبة أكبر في معاملتهم على المنوال نفسه. ان وليم أورمسبي ـ غور، أحد مساعدي أمناء السر الثلاثة في مجلس الوزراء الحربي، كتب من تل أبيب في صيف عام ١٩١٨ الى زميله مارك سايكس قائلاً ان ضباط الاحتلال العسكري الذين سحبوا من الخدمة في مصر والسودان، هم أشخاص «لا تؤهلهم خبرتهم لسرعة ادراك المسائل الواسعة النطاق للسياسة العالمية التي تتأثر بها فلسطين. ولا يسع المرء إلا أن يلاحظ الميل الراسخ لدى الانكليز الذين عاشوا في الهند أو السودان لتفضيل المسلمين، دون وعي منهم، على المسيحيين واليهود». وأضاف: «ان عرب فلسطين، حسبما توافر لدي من معلومات، أخذوا يظهرون ميلهم القديم الى أساليب الرشوة والبخشيش ويحاولون أن (يزحفوا خلسةً) على اليهود»[٢٤].

أرسل كلايتون رسالة أورمسبي ـ غور الى سايكس مصحوبة برسالة من عنده مبدياً فيها شعوره بأن رسالة أورمسبي ـ غور تنطوي على تضليل. واحتج كلايتون بأنه هو شخصياً محبذ للصهيونية[٢٥]. والظاهر أنه تحول الى وجهة النظر القائلة انه يمكن تحقيق اتفاق بين العرب واليهود. لم تكن نظرته الى العرب المحليين نظرة احترام، فكتب الى جيرترود بل، وهي مؤلفة ورحالة الى الشرق كانت آنذاك تعمل في الادارة البريطانية في بغداد قائلاً: «ان هؤلاء الذين يسمونهم عرب فلسطين لا تجوز مقارنتهم بالعربي الحقيقي ابن الصحراء ولا حتى بعرب

(٢٣) رخوبوت، اسرائيل. محفوظات وثائق وايزمان. من ديدز إلى وزارة الخارجية، ١٩ تشرين الثاني ١٩١٧.

(٢٤) اوكسفورد. كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق مارك سايكس (د.س. ١٢٥) د.س. ١/٣/١٢٥.

(٢٥) المرجع نفسه، د.س. ١٢٥.

المناطق الأكثر تمدناً في سورية وبلاد الرافدين»[٢٦].

وقد كتب رونالد ستورز، الذي عُين حاكماً عسكرياً للقدس، الى سايكس في صيف عام ١٩١٨ قائلاً ان العناصر غير اليهودية من السكان التي لا بد لها في نهاية الأمر من أن تشغل «مكانة أدنى في الأرض التي يثق الآخرون ثقة مطلقة انهم سيستولون عليها في نهاية المطاف، ولذلك يجب أن تنجز العملية قدر المستطاع بلباقة ورفق وكياسة وأن تتوافر للحامية المغادرة بعض مراسم التكريم المتبعة في الحرب». وكتب ستورز داعياً الى اتباع سياسة التمهل فقال: «قد يتطلب الأمر شهوراً وربما سنين من العمل الدؤوب لكي نبين لليهود اننا لا نُسيّر من قبل العرب، ونبين للعرب أن اليهود لم يبتاعونا»[٢٧].

وكتب ستورز في الرسالة نفسها: «ان رؤية المستقبل المحتمل لهذا البلد بوضوح كافٍ هو شيء، والتقصير في أن نحسب حساباً لموقع العنصر الأضعف وربما المختفي، هو شيء آخر. ان نتائج التبدلات ستكون أبعث على الرضى وأكثر ديمومة إذا ما تحققت تدريجاً وبأناة، ومن دون التعبير بعنف عن سوء النية الذي يخلف وراءه حقداً لا يزول»[٢٨].

المسألة التي أثارها ذلك أمام سايكس وزملائه في لندن هي: هل هذه السياسة التي يدعو اليها الرجل الموجود في الموقع، هي المثلى من حيث دقة الحساب لتحقيق، أو افشال، أهدافهم.

(٤)

اتخذ سايكس وزملاؤه في وزارة الخارجية في مطلع عام ١٩١٨ خطوات لوضع سياستهم المتعلقة بفلسطين موضع التنفيذ. وأبرقت وزارة الخارجية في ١٣ شباط (فبراير) الى ريجينالد وينغيت في مقر المعتمد البريطاني في القاهرة تبلغه أن لجنة صهيونية قد أنشئت وسوف ترسل الى الشرق الأوسط، وانها تضم ممثلين عن الحركة الصهيونية البريطانية والحركات الصهيونية الأخرى، وسيكون على رأسها الدكتور حاييم وايزمان وسيكون مسؤولاً عنها وليم أورومسبي ـ غور. أما هدفها فهو تمهيد الطريق لتنفيذ إعلان بلفور[٢٩].

لقد دشن ألن داوني، أحد ضباط الأركان في قيادة اللنبي، عمل اللجنة الصهيونية بترتيب لقاء بين وايزمان والأمير فيصل، ثم كتب الى الكولونيل جويس كبير الضباط البريطانيين المرافقين لفيصل انه: «يظن استناداً الى ما فهمه عن الأهداف الصهيونية، من خلال حديث قصير، انه لن تكون هناك صعوبة في إقامة علاقة صداقة بينهما»[٣٠].

---

(٢٦) دورهام، جامعة دورهام. محفوظات وثائق السودان. أوراق كلايتون الرئيسة. جي./اس ٥١٣ الملف ١.

(٢٧) اوكسفورد. كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق مارك سايكس (د.س. ١٢٥) د.س. ١٤٩.

(٢٨) كينغستون ابون هل. جامعة هل. مكتبة براتيمور جونز. أوراق مارك سايكس. ١١ـ١٠١.

(٢٩) كيو. مكتب السجل العام. مجلس وزراء الحرب، لجنة الشرق الأوسط. سي.اي.بي. ٢٧/٢٣ ص ١٣٢.

(٣٠) اوكسفورد. كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق فيصل. ب ـ ٣١.

جرى تقديم وايزمان الى الأمير فيصل فشعر باندفاع حماسي نحوه وكتب وايزمان الى زوجته عن فيصل قائلاً: «انه أول قومي عربي حقيقي اجتمع به. انه قائد! وهو ذكي جداً وصادق جداً ووسيم وكأنــه صورة مرسومة! وهو غير مهتم بفلسطين، ولكنه من جهة أخرى يريد دمشق وسورية الشمالية بكاملها... وينظر نظرة احتقار الى عرب فلسطين بل انه لا يعتبرهم عرباً!»(٣١).

هذا الكلام يتفق مع ما قاله أورمسبي ـ غور في اجتماع صهيوني عقد في لندن بعد بضعة شهور. ووفقاً لتلخيص لخطابه فانه قال أمام اللجنة السياسية الصهيونية:

«ان الحركة العربية الحقيقية موجودة في الواقع خارج فلسطين، والحركة التي يقودها الأمير فيصل ليست مختلفة عن الحركة الصهيونية. انها تضم عرباً حقيقيين وهم رجال حقيقيون. ان العرب المقيمين عبر الأردن أناس رائعون. أما الناس الذين غربي الأردن فليسوا عرباً وانما هم فقط ناطقون بالعربية(*). ويجب على الصهيونيين أن يعتبروا الحركة العربية، ومركزها الحجاز أصلاً، ولكنها تنتقل الآن شمالاً، حركة زميلة ذات مثل سامية»(٣٢).

لقد حضر الكولونيل جويس كبير مستشاري الأمير فيصل العسكريين البريطانيين، اجتماع وايزمان وفيصل، ثم نقل جويس رأيه الشخصي فقال ان فيصل رحب بامكانية التعاون اليهودي، وانه في الحقيقة اعتبر هذا التعاون جوهرياً لتحقيق الطموحات العربية. وفي رأي جويس أن الأمير فيصل، بالرغم من عدم قدرته على ابداء آراء محددة من دون أن يتلقى تفويضاً من والده، سيقبل بفلسطين يهودية إذا كان في ذلك ما يقنع الحلفاء بتأييد مطالبته بسورية(٣٣). لقد سار الاجتماع سيراً حسنـاً ومهد الطريق للتأييد العلني للصهيونية الذي قدمه فيصل في مؤتمر الصلح السنة اللاحقة.

أما في القدس فقد وجد وايزمان المسلمين الذين التقاهم أقل تقبلاً، مع انه أكد لهم ان فلسطين كبيرة الى حد يكفي لاستيعاب جميع فئات سكانها، وان الاستيطان اليهودي لن يكون على حساب المسلمين أو المسيحيين. وقد أزعج وايزمان موقف المسؤولين الاداريين البريطانيين في فلسطين. فعندما دعاهم وايزمان الى تبني سياسة حكومتهم المتعلقة بإعلان بلفور بصورة علنية وأن يشرحوها للسكان المسلمين، رفض رونالد ستورز وزملاؤه أن يستجيبوا له.

---

(٣١) **رسائل وأوراق حاييم وايزمان**، المجلد ٨، السلسلة آ: **تشرين الثاني ـ ١٩١٧ تشرين الأول ١٩١٨**، أعدها للطباعة دفورة بارزيلا وبارنت ليتفينوف (القدس: مطبعة الجامعة الاسرائيلية، ١٩٧٧)، ص ٢١٠.

(*) ربما كانت هذه أول اشارة الى ان كبار المسؤولين البريطانيين كانوا يفكرون بحصر الصهيونية في تلك الاقسام من فلسطين التوراتية الواقعة غربي نهر الأردن.

(٣٢) **بذور النزاع**، اعيدت طباعته في: **أوراق فلسطين ١٩١٧ ـ ١٩٢٢** صنفها وعلّق عليها دروين انغرامز (لندن: جون مري، ١٩٧٢)، ص ٣٣.

(٣٣) المرجع نفسه، ص ٣٧. كيو. مكتب السجل العام. أوراق المكتب العربي. وزارة الخارجية ٨٨٢. المجلد ٢٤. الوثيقة ١٠٥٨٢٤.

لقد رد ستورز في رسالة الى وزارة الخارجية على ادعاء وايزمان أن مسؤولية الادارة العسكرية اقناع السكان المسلمين بجدية التأييد البريطاني للصهيونية، فقال ان ذلك قد حدث فعلاً، وقام به بلفور في لندن وكذلك صحف العالم. والمطلوب هو أن تتخيل اللجنة الصهيونية نفسها في مكان سكان البلاد غير اليهود وأن تقر بمدى حاجتهم الى الكثير جداً من التطمينات. «ان فلسطين وهي حتى الآن بلد اسلامي، قد سقطت في يد دولة مسيحية أعلنت عشية فتح البلد أن جزءاً كبيراً من أرضها سوف يسلم لأغراض استعمارية الى شعب ليست له شعبية كبيرة في أي مكان». لم يغب عن بال رونالد ستورز، ابن المدينة، انه الآن حاكم القدس في سلسلة التعاقب منذ بيلاطس البنطي، ولذلك غسل يديه من مسألة لا يعتبر نفسه مسؤولاً عنها. بيد أنه أكد لدى وزارة الخارجية انه انما يتحدث «بصفته صهيونياً مقتنعاً بصهيونيته»[٣٤].

كان جيلبرت كلايتون أيضاً يدعو الى التمهل. كانت استراتيجيته، التي سبق أن قدم مؤشراً اليها في مطلع عام ١٩١٨، غير مقتصرة على تأجيل المسألة الصهيونية، بل كانت تقضي أيضاً بربط هذه المسألة بمسألة سورية العربية، وهو ما كان فيصل أيضاً يقترحه. وقد قال كلايتون في رسالة الى ليو أيميري الشديد الولاء للصهيونية: «ان أهم نقطتين هما عدم الاندفاع الزائد عن الحد محلياً مع الصهيونية قبل أن ينال العرب حصتهم من الكعكة، أي دمشق، وحمل الفرنسيين على أن يكونوا واضحين في نبذهم أية أفكار عن الضم الاستعماري وأن يؤكدوا التزامهم بفكرة الحكم الذاتي العربي»[٣٥].

لم يعالج كلايتون ولا ستورز السؤال التالي: هل إذا رفضنا الاعتراف في القدس بأن حكومتهما أصدرت إعلان بلفور في لندن، سيعتاد العرب واليهود في فلسطين أن يثقوا بالبريطانيين أكثر مما يثق المسلمون في سورية ولبنان بالفرنسيين. في تلك الأحوال كانت لدى الزعماء الصهيونيين أسباب للقلق من تقويض سياسة إعلان بلفور الذي صدر في لندن على أيدي كلايتون وستورز وضباط آخرين في فلسطين.

(٥)

وفي بغداد والبصرة، لم تحظ سياسة الاستقلال العربي التي أعلنها سايكس ووزارة الخارجية البريطانية بما هو أكثر كثيراً من التأييد اللفظي. وقد اضطر سير بيرسي كوكس، للسفر في رحلة طويلة ثم للعودة الى فارس. وقام بأعماله في غيابه نائبه الكابتن أرنولد ويلسون، ثم خلفه بصفة حاكم مدني. ولم يؤمن ويلسون، الضابط في الجيش الهندي، باستقلال الولايتين اللتين كان يحكمهما، ولا بدور للملك حسين، ملك الحجاز البعيدة، في شؤون الولايتين.

(٣٤) كيو. مكتب السجل العام. أوراق المكتب العربي. وزارة الخارجية ٨٨٢. المجلد ٢٤. الوثيقة ٩٢٣٩٢. انغرامز، **اوراق فلسطين**، الصفحات ٢٤ ـ ٢٦.

(٣٥) **مفكرات ليو ايميري**، المجلد ١: ١٨٩٦ ـ ١٩٢٩ أعدها للطباعة جون بارنز وديفيد نيكولسون (لندن: هتشنسون، ١٩٨٠)، ص٢٠٦.

كانت جيرترود بل، أشهر من ألّف كتباً عن الأراضي العربية في زمنها، قد جاءت الى بغداد مع جيش دجلة وعملت بصفة مساعدة لويلسون. وفي أول الأمر استخدمت مكانتها الكبيرة وشبكة صداقاتها الأسرية والاجتماعية الواسعة لدعم سياسته. ولم تكن لها مزايا المفكرين السياسيين، بل كانت تصاب بطفرات من الحماسة، وفي ذلك الحين تحمست لآراء ويلسون. وفي شباط (فبراير) ١٩١٨ كتبت الى صديقها القديم تشارلز هاردينج، الوكيل الدائم لوزارة الخارجية البريطانية، قائلة: «لقد تحققت خطوات مذهلة باتجاه اقامة حكومة منظمة... ولا يقف أي عنصر هام ضدنا... وكلما قويت قبضتنا ونحن نمسك بزمام الأمور هنا، زاد سرور السكان. ان ما يكرهونه هو انصاف الحلول...». وختمت كلامها بالقول ان لا أحد في بغداد أو البصرة يستطيع التفكير بحكومة عربية مستقلة[٣٦].

لقد كان هذا الكلام أبعد ما يكون عن البيان الذي أعد مسودته سير مارك سايكس بشأن تحرير بغداد، داعياً فيه الى بعث الأمة العربية، وفقاً لاقتراح أمير مكة في مراسلات الحسين ـ مكماهون، وكان في البيان تلميح الى أن الحسين سيكون زعيم الأمة العربية.

في أمكنة أخرى أيضاً جرى تعديل في سياسة التحالف التي دعا اليها سايكس نتيجة تخلي مسؤولين بريطانيين عن حماستهم في زمن الحرب لحاكم مكة. وفي حين استمر سايكس منافحاً عن قضية الحسين، لاحظ مسؤولون بريطانيون تدهور وضع الحسين مقابل وضع منافسه، عبدالعزيز بن سعود، سيد نجد، الذي دعمته حكومة الهند طوال الوقت. وكان سايكس قد تلقى ايماءة الى هذا التدهور عندما زار الحجاز في ربيع ١٩١٧، إذ كان الحسين على نحو مفاجيء مهادناً بموافقته على التعاون مع بريطانيا في بلاد الرافدين، بل ومع فرنسا في سورية، مضيفاً: «لكننا نطلب إلى بريطانيا العظمى أن تساعدنا في مسألتنا مع ابن سعود»[٣٧] (*).

---

(٣٦) بريتون كوبر بوش، **بريطانيا والهند والعرب، ١٩١٤ ـ ١٩٢١** (بيركلي ولندن: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٧١)، ص ١٥٦، هـ. ف.ف. ويندستون، **جيرترود بل** (لندن: جوناثان كيب، ١٩٧٨)، ص ٢٠٢.

(٣٧) اوكسفورد، كلية سانت انطوني، مركز الشرق الأوسط. «أوراق ماركس سايكس». د.ن. ٥٨٨/ ٢٥.

(*) كان أحد الاخفاقات الكبيرة لكيتشنر وزملائه في مجال الاستخبارات، جهلهم الانتعاش المذهل للمذهب الوهابي التطهيري في شبه جزيرة العرب. وقد بدأ هذا الانتعاش تحت رعاية ابن سعود، وأدى في أواخر ١٩١٢ الى نشوء أخوية تنزع الى القتال، هي جماعة الاخوان. ويفيد محضر اجتماع عقدته لجنة الحرب المنبثقة عن مجلس الوزراء بتاريخ ١٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٥ للاستماع الى شهادة من سير مارك سايكس عن المسألة العربية أن اللورد كيتشنر سأل: «الا تزال الوهابية موجودة؟» فأجاب سايكس: «أظن انها نار تخبو»[٣٨].

وبعد سنتين ـ وخمس سنوات بالتمام عقب نشوء جماعة الأخوان الوهابية ـ أبلغ جيلبرت كلايتون سايكس للمرة الأولى: «أن لدينا ما يشير الى حركة انبعاثية كبيرة وفق الخط الوهابي في أواسط شبه جزيرة العرب، على غرار ما كان يحدث سابقاً كلما هبطت مكانة الاسلام. ولسنا بعد في وضع يسمح لنا بتقويم قوة هذه الحركة»، ولكن الظروف تغري بتغذيتها. هذه المسألة تحظى باهتمامنا الجدي هنا... وقد تغير الموقف كله تغييراً كبيراً[٣٩].

(٣٨) المرجع نفسه، د.ن. ٥٨٨.

(٣٩) المرجع نفسه، (د.ن. ٥٨٨/ ٢٥) د.س. ١٤٩.

في كانون الثاني (يناير) ١٩١٨ أبلغ الملك حسين أحد ضباط المكتب العربي، الرائد كيناهان كورنواليس، انه يفكر بإعلان نفسه خليفة المسلمين. كانت هذه خطة كيتشنر قبل ثلاث سنوات، مدفوعاً الى تبنيها بالمذكرات التي تلقاها من كلايتون وستورز، وكان الضباط الذين شكلوا في ما بعد المكتب العربي يدعون الى تنفيذها.

ولكن مع حلول كانـون الثاني (يناير) ١٩١٨ تبدلت وجهة نظر المكتب العربي الى وجهة نظر معاكسة، نظراً لتدني تقديرها للشريف حسين. وفي محاولة من كورنواليس، لكي يثني الشريف حسين عن هذا الهدف، أخذ يبصّره بالمشكلات الخطيرة التي ستنشأ إذا ما حاول أن يتولى الخـلافـة. وعنـدمـا تلقى المنـدوب السـامي سير ريجينـالد وينغيت الأخبار التي زوده بها كورنواليس، بادر الى ارسال رسالة الى وزارة الخارجية قائلاً انه يأمل أن تتوافر فرصة «لايقاف أي عمل سابق لأوانه أو غير مدروس دراسة حسنة» من جانب الحسين[٤٠]. كان هذا الجنرال وينغيت نفسه الذي أقنع بتاريخ ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٥ زعيماً دينياً عربياً بأن يقول للشريف حسـين: «انـه الرجل المناسب لتسلم الإرث الذي هو من حقه ولتحقيق آمال شعبه - المحمديين والعرب في استعادة الخلافة السليبة» ودعا الزعيم الهاشمي الى اقامة «الخلافة العربية الهاشمية»[٤١].

رأى أتباع كيتشنر انه ليس ملائماً أن يتذكروا انهم ورئيسهم شجعوا الحسين ذات يوم بأن يدعي الخلافة، معتقدين أن محو هذه الذكرى في ذاكرتهم سيؤدي الى اغفالها لاحقاً في كتبهم والى شطبها من الوثائق الرسمية. ان سير رونالد ستورز حذف من مذكراته التي نشرت بعد ثلاثة عقود الجزء الذي يتحدث عن الخلافة في برقية كيتشنر التاريخية الى الحسين عام ١٩١٤. وكتب لورنس ان كيتشنر وأتباعه آمنوا بالقومية العربية منذ البداية - مع انهم في الحقيقة لم يؤمنوا بها قط، بل آمنوا بدلاً منها بقوة الخلافة، وبقدرة الحسين على الاستيلاء عليها من أجلهم، وآمنوا أن القوة في الشرق لا تعني شيئاً وان الدين هو كل شيء[*].

وحقيقة الأمر ان أجواء السياسة عام ١٩١٨ والرغبة في إعادة كتابة التاريخ، قد أملت حدوث تحول في التوكيد: لقد أخذ فيصل، وليس الحسين، يبرز بصفته الزعيم العربي المفضل لدى القاهرة، لأن فيصل أظهر توجهاً، يفتقر اليه والده، لقبول النصح والتوجيه البريطانيين.

في حسابات المصادر البريطانية في خريف عام ١٩١٨ كان مجموع الجيوش التي يقودها أبناء

---

(٤٠) كيو. مكتب السجل العام. مجلس وزراء الحرب، لجنة الشرق الأوسط. سي.اي.بي. ٢٧/٢٣ الصفحتان ١٢٧ - ١٢٨.

(٤١) كيو. مكتب السجل العام. أوراق المكتب العربي. وزارة الخارجية ٨٨٢. المجلد ١٨ (تي.يو. ٢٥/٥ (٦).

(*) لو كانت غايتهم حقاً قيام ثورة قومية لما لجؤوا الى الحسين، حارس الأماكن المقدسة المعين من قبل الأتراك والذي استعان بالقوات التركية لاخماد التذمر العربي، بل كان عليهم أن يبحثوا عن زعيم قومي مقاتل.. بهذه الطريقة روى لورنس القصة في كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» فصوّر فيصل، وليس والده، انه هو الزعيم المنشود.

الحسين لا يتعدى بضعة آلاف من الجنود المدربين. وكان ادعاء البريطانيين في العلن ان أعداد هائلة من العرب تقاطرت للقتال تحت راية الأمراء الحجازيين. أما في الأوساط الخاصة فكانوا يروون قصة مختلفة. ان الوثائق السرية للحكومة البريطانية التي صنفت في عام ١٩١٩ تقر «بأن الأرقام التي ذكرت خلال الحرب عن عدد الأتباع كان مبالغاً فيها كثيراً»[٤٢]. ان تقريراً رفعتــه الوكالة البريطانية في جدة عام ١٩١٩ قد رسم صورة للملك حسين انه غير ذي شأن عسكـريـاً: لقـد قدر عدد أتباعه بألف جندي نظامي فقط، وألفين وخمسمئة من الجنود غير النظاميين وربما يضاف اليهم بضعة آلاف من القبائل البدوية، وكان تقدير كفاءاتهم القتالية انها «ضعيفة». وجاء في التقرير أيضاً ان الملك حسين «غارق في أحلام جامحة عن الفتوحات» ولكن سحب التأييد البريطاني سيتركه «تحت رحمة ابن سعود والموجة الوهابية الصاعدة»[٤٣].

وذكر تقرير أعده المكتب العربي عن ثورة الحجاز في عام ١٩١٨ «لم نشعر بالأهمية الحقيقية لهذه الثورة إلّا في بضعة الشهور الأخيرة وهي تنتشر يوماً بعد يوم. ولا بد في الوقت نفسه من القول ان تسعين بالمئة من جنود الشريف ليسوا أكثر من رجال سلب ونهب...» وجاء في التقرير أن العرب لم يثوروا على الأتراك إلا بعد وصول القوات البريطانية، وهكذا «يمكن القول بكلمة، ان مدى ثورة الشريف يعتمد اعتماداً كلياً على قدرة القوات البريطانية على احراز تقدم»[٤٤]. وكتب الكولونيل ماينرتزهاغن، رئيس الاستخبارات في قيادة اللنبي، «انه من الصواب أن نقول ان حملة لورنس في الصحراء لم يكن لها أدنى تأثير في ساحة الحرب الرئيسة غربي نهر الأردن»[٤٥].

ولكن الآخرين خالفوا هذا الرأي. فقد استمر سايكس مدافعاً عن التحالف مع الحسين ومؤمناً ان فيصل وأشقاءه يسهمون اسهاماً كبيراً في المجهود الحربي، وقال أن ثورة الحجاز في شبه الجزيرة العربية وأماكن أخرى شاغلت في عام ١٩١٨ ثمانية وثلاثين ألف جندي عثماني[٤٦]. وتبيّن مذكرات قائد قوات العدو، ليمان فون ساندرن، انه عندما اتجه هو وجيوشه الى الفرار في عام ١٩١٨ وجـدوا أنفسهم يتعرضون لمضايقة مؤلمة من قبل البدو العرب[٤٧]. كما ان لهجة مذكرات جيلبرت كلايتون تبين انه كان يعتقد بأن فيصل ولورنس يحققان أهدافاً هامة على

---

(٤٢) المرجع نفسه، المجلد ٢٠. م ١/١٩/٠٣.

(٤٣) المرجع نفسه، المجلد ٢٠، انش. ام/١٩/٠١.

(٤٤) المرجع نفسه، المجلد ١٧ الوثيقة ٢٦.

(٤٥) الكولونيل ر. ماينر تزهاغن، **مفكرة الشرق الأوسط** ١٩١٧ ـ ١٩٥٦ (لندن: مطبعة كريسيت، ١٩٥٩)، ص ٢٨.

(٤٦) اوكسفورد. كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط. «أوراق مارك سايكس». د.ن. ٥٨٨.

(٤٧) ليمـان فون سانـدرن، **خمس سنوات في تركيا** (انابوليس: المعهد البحري للولايات المتحدة، ١٩٢٧)، الصفحات ٣٠٦ ـ ٣٢٠.

ميمنة جيش اللنبي. وثمة أدلة أخرى تفيد ان القوات العربية في شرق الأردن نجحت في نشر الفوضى في المناطق التي في حوزة الأتراك.

إن مدى اسهام فيصل في نجاحات الحلفاء سؤال لم يجد جواباً في وحل السياسة آنذاك، ولا يزال بغير جواب حتى الآن. ولكنه أثار سؤالاً آخر: هل تدعم بريطانيا الحسين وفيصل ضد الزعامة العربية السورية التي هي من أهل البلاد الأصليين؟ وهل تؤيد بريطانيا فيصل ضد الحسين؟

نشأت في معسكر الشريف حالات تفسخ، اذ انقطع فيصل عن الحجاز وعن أسرته وانتقل الى فلك بريطانيا. وقد التقطت السلطات العسكرية البريطانية سراً برقيات شكا فيها الحسين من «انهم جعلوا ولدي ينقلب علي ويعيش في بلدان أخرى، انه متمرد وخائن لوالده»[٤٨]. وشكا أيضاً قائلاً: «انني أعيش تحت أوامر ولد عاق وعاصٍ، وهذا ما يثقل كاهلي بهذا الشقاء». وهدد بأنه «إذا استمر فيصل في تدمير مستقبله الطيب وأمته وشرفه» فلا بد من تعيين مجلس حربي يحل محله[٤٩]. في أثناء ذلك أشار متحدثون باسم السوريين، وفقاً لتقارير المكتب العربي الواردة من القاهرة، انهم مستعدون لقبول فيصل ملكاً دستورياً عليهم، ولكن فقط بأهليته وليس إذا جاء بصفة مندوب للحسين أو ممثل له[٥٠].

(٦)

كان القادة البريطانيون منذ عام ١٩١٤ فما بعد، يبدون ثقتهم بزعامة الحسين ضمن العالم العربي، ولكنهم في عام ١٩١٧ وعام ١٩١٨ انتابهم الشعور بوجوب اعادة النظر في صحة اعتقادهم.

وبينما كانت بريطانيا تكمل فتح العالم العربي في الشرق الأوسط، بدأ القلق ينتاب المسؤولين البريطانيين من جراء المقاومة المحلية التي قد يواجهونها. ان المحاولات التي بذلها كلايتون في عام ١٩١٤ من أجل التوصل الى تفاهم مع القادة الانفصاليين القادمين من بغداد ودمشق، تعثرت بسبب اعتراضهم على الخضوع لحكم غير المسلمين. كانت دمشق آنذاك على خط الزحف البريطاني، فنشأت مسألة كيفية كسب الدمشقيين لينحازوا الى قضية الحلفاء والى مشروع الحلفاء بشأن مستقبل الشرق الأوسط. وقد لا يكون لموافقة فيصل على برنامج الحلفاء تأثير فيهم.

في صيف عام ١٩١٨ تحدث وليم أورمسبي - غور أمام اللجنة السياسية الصهيونية في لندن فقال: «ان الفئة المثقفة السورية من محامين وتجار هي المشكلة الشائكة والأصعب في الشرق الأدنى. هؤلاء ليست لهم حضارتهم وقد امتصوا كل رذائل الشرق»[٥١].

---

(٤٨) اوكسفورد. كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق فيصل. - ١٤.

(٤٩) دورهام. جامعة دورهام. محفوظات وثائق السودان أوراق ريجينالد وينغيت. ١٤٩/٧/١ - ١٠٩.

(٥٠) كيو. مكتب السجل العام. أوراق المكتب العربي. وزارة الخارجية ٨٨٢. المجلد ١٧ الوثيقة ٣٣.

(٥١) انغرامز، «أوراق فلسطين»، ص ٣٣.

ويبدو أن سير مارك سايكس بدأ يساوره القلق في السنة السابقة من جراء المشكلة السورية، وذلك في سياق التعهدات التي أراد من بريطانيا أن تفي بها لحلفائها ـ وأراد من حلفاء بريطانيا أن يفوا بتعهداتهم لها. كان مبعث قلقه ألا يوافق السوريون على اتفاقية سايكس ـ بيكو وبالشروط التي عرضها سير هنري مكماهون على الشريف حسين. وقد طلب في عام ١٩١٧ إلى المكتب العربي أن يهيىء له اجتماعاً مع الزعماء العرب السوريين في القاهرة، والظاهر أن هدفه كان أن يتوصل معهم الى اتفاق يتلاءم مع الاتفاقات السرية المعقودة مع فرنسا ومع الحجاز ـ والتي لم يكن يستطيع أن يكشف عن وجودها. وقد ادعى أنه نجح، فكتب بخط يده يقول: «كانت المشكلة الرئيسة هي المناورة لجعل المندوبين يطلبون ما كنا نحن مستعدين لإعطائهم، دون أن ندعهم يعرفون أننا توصلنا الى أية اتفاقية جغرافية محددة»[٥٢]. ولا بد أن «الاتفاقية الجغرافية المحددة» كانت تعني خط دمشق ـ حمص ـ حماه ـ حلب الذي تقرر أن يكون الحد الغربي للاستقلال العربي في سورية بموجب الاتفاق مع الفاروقي في عام ١٩١٥ ومع فرنسا في عام ١٩١٦.

ولكن وصلت تقارير من أوساط عديدة تفيد أن الحكومة العثمانية ربما كانت تخطط لاجهاض القومية العربية عن طريق منح سورية الحكم الذاتي فوراً. ومن شأن ذلك أن يضع بريطانيا في وضع حرج من حيث رعايتها لمطالب الملك حسين بما هي متعارضة مع قيادة عربية من أهل البلاد في دمشق قد تكون لها شعبيّة أكبر كثيراً في المحافظات السورية.

وقبيل نهاية عام ١٩١٧ أبرق سايكس الى كلايتون قائلاً: «ينتابني القلق بشأن الحركة العربية. هناك رسائل تشير الى صعوبة الجمع بين نظام المشيخية المكية والمثقفين من سكان المدن السورية». وعلى عادة سايكس في ابتكار منفذ جديد، اقترح انشاء لجنة تنفيذية عربية لتشجيع الوحدة. ولا بد أن كلايتون قال ان انشاءها ليس ممكناً إذ أن سايكس رد قائلاً: «أتفق معك بشأن الصعوبة ولكن النجاح العسكري يسهل الأمر». وقال سايكس انه ينبغي اقناع بيكو بأن يطمئن السوريين الى أن فرنسا تحبّذ استقلالهم في نهاية الأمر. وفي الحديث مع بيكو دفاعاً عن العرب، يجب استخدام الحجج عينها التي استخدمت في الحديث معه دفاعاً عن الصهيونية: أي ان التنازل عن شيء ما في الشرق الأوسط البعيد أفضل من المجازفة بخسارة الحرب وخسارة فرصة لاستعادة الألزاس واللورين ـ المقاطعتين الأقرب الى فرنسا[٥٣].

كان سايكس يجادل قائلاً ان بريطانيا تستطيع الوفاء بكل تعهداتها، وأن تستوعب السوريين أيضاً، بشرط أن يقدم الجميع تنازلات معقولة. أما كلايتون فقد صور، على عادته، التزامات بريطانيا في زمن الحرب بأنها إحراجات ينبغي التخلص منها، وقال في جوابه الى سايكس: «لا ريب في أن هنالك خوفاً حقيقياً جداً بين السوريين من أن يجدوا أنفسهم في ظل حكومة السيطرة

(٥٢) اوكسفورد، كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق مارك سايكس. د.س. ٥٨٨/ ٢٥.

(٥٣) المرجع نفسه، د.ن. ٥٨٨/ ٢٥.

فيها للمشيخية المكية. فهم يدركون أن المبادىء الرجعية التي لا يستطيع شريف مكة فكاكاً منها، لا تنسجم مع التقدم على أسس عصرية». وقد اقترح الابتعاد عن التحالف مع الحسين قائلاً ان فيصل، كإنسان فرد، قد يكون مقبولاً كرئيس لاتحاد كونفيدرالي سوري بشرط أن يكون دور والده روحياً لا سياسياً. وتابع كلايتون قائلاً انه ما لم تعالج المشكلة الأساسية فلن يكون لأية خطة أو لجنة أو إعلان أو دعاية أي تأثير. وقال تلميحاً (ولكنه لم يستخدم هذه الكلمات حرفياً)، ان المشكلة أوجدتها التعهدات التي قطعها سايكس للفرنسيين والصهيونيين. وتابع كلايتون شرح حجته قائلاً: ما من شيء سوف ينفع ازاء المناورة التركية المحتملة باقامة حكومة سورية ذات حكم ذاتي، لأن في العالم العربي خوفاً عاماً من أن بريطانيا تخطط لتسليم سورية الى فرنسا. وممّا يعقّد الوضع، التعهد العلني الذي قدمناه للصهيونية. والحل الوحيد يتمثل في الحصول من فرنسا على إعلان واضح ينفي عزمها على ضم أي جزء من سورية اليها[٥٤].

دعا أوزموند والروند، وهو عضو سابق في هيئة موظفي اللورد ميلنر، سبق أن عرف مصر قبل الحرب وجاء للعمل في المكتب العربي في القاهرة، الى معالجة أخرى للمشكلة. فقد رأى أن بريطانيا أهملت الجمعيات السرية العربية فبدأ يسعى للحصول على تأييدها، وكتب الى كلايتون في صيف ١٩١٨ عن محادثات أجراها مع أعضاء ينتمون الى هذه الجمعيات. فقال انه طلب اليهم انتخاب لجنة صغيرة تمثلهم ليتمكن من التعامل معهم، فانتخبوا لجنة من سبعة أعضاء[٥٥]. والظاهر انه كان في نية والروند أن يكرر مناورة سايكس التي قام بها في السنة السابقة مع مجموعة أخرى من العرب في القاهرة المرتابين بالحسين: أي أن يدبر قبولهم بياناً بخطط بريطانيا في الشرق الأوسط بحيث يرتبطون، مثلما ارتبط الحسين بقبول هذه الخطط.

بناء على ذلك وجه سير مارك سايكس في منتصف عام ١٩١٨ بياناً يتضمن النيات البريطانية، الى اللجنة المؤلفة من سبعة سوريين التي تحدث عنها والروند، وكان البيان رداً على أسئلة هم ظاهرياً الذين طرحوها. ومع أنه كان بياناً رسمياً يحظى بموافقة رؤساء سايكس في وزارة الخارجية، فلم يأتِ بجديد. اذ انه كأشياء كثيرة دبجتها ريشة سايكس، كرر النيات عينها تجاه الشرق الأوسط بعد الحرب ولكن بكلمات مختلفة. وهي تعني أن العالم العربي خارج شبه جزيرة العرب سيقع تحت النفوذ الأوروبي أو السيطرة الأوروبية بدرجات متفاوتة. ان بيان سايكس الى المندوبين السبعة ـ الذي صار في ما بعد موضوع جدل كثير ـ اعترف بالاستقلال العربي الكامل ضمن شبه جزيرة العرب فحسب، إذ انه عرض هذا الاعتراف فقط بالنسبة للمناطق التي كانت مستقلة قبل الحرب أو المناطق التي حررها العرب أنفسهم حتى تاريخ الاعلان.

لم يكن في وسع سايكس أن يذهب الى مدى أبعد لتبديد الشكوك العربية في نيات فرنسا تجاه سورية ولبنان، ما لم يحصل أولاً على تعاون فرنسا في اصدار تعهد مشترك. وقد اقتنعت

---

(٥٤) المرجع نفسه.

(٥٥) كيو، مكتب السجل العام. أوراق المكتب العربي، وزارة الخارجية ٨٨٢. المجلد ١٧ الصفحات ٩٧ ـ ١٠٣.

الحكومة الفرنسية أخيراً في خريف عام ١٩١٨ بالانضمام الى وزارة الخارجية البريطانية في اصدار بيان جديد يتضمن نيات الحلفاء، وهدفه تبديد مخاوف العرب ـ وشكوك الأميركيين. وقد صيغ البيان البريطاني ـ الفرنسي الذي صدر بتاريخ ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨ بعبارات عامة توحي بالتأييد التام لانشاء حكومات من أهل البلاد في الشرق الأوسط. ولكن البيان كان يهدف الى التضليل، إذ انه، بناءً على اصرار فرنسا، لم يتضمن أية إشارة محددة الى «الاستقلال» العربي[٥٦]. وبدا أن المسؤولين الفرنسيين، شأنهم شأن نظرائهم البريطانيين، لم يكن في نيتهم أن يتبعوا الطريق المثالية التي حددها لهم مارك سايكس وفي ذهنه أن يستجيب لآراء الرئيس ويلسون والأميركيين.

(٥٦) كريستوفر اندرو و ا.س. كانيا مورستنر، **ذروة التوسع الامبراطوري الفرنسي ١٩١٤ ـ ١٩٢٤** (ستانفورد: مطبعة جامعة ستانفورد، ١٩٨١)، ص ١٦٢.

الفصل الثالث

المعركة من أجل سورية

(١)

مع اقتراب صيف ١٩١٨ من نهايته، أصدر سير ادموند اللنبي الأمر بالزحف على سورية، وقدّر أن ليمان فون ساندرز سيتوقع منه أن يكرر الاستراتيجية التي اتبعها في جنوب فلسطين. ففي حملة القدس قام بهجوم مخادع على الساحل، ولكنه اندفع بقوة شرقاً ليشن هجومه في الداخل. ولذلك فانه عند هجومه على شمال فلسطين فعل العكس تماماً: قام بهجوم مخادع في الداخل وشن الهجوم الرئيس على الساحل. كانت غايته أن يحقق تفوقاً عددياً محلياً ساحقاً ليخترق الخطوط التركية في أفضل نقطة لفرسان قواته الاسترالية والنيوزيلندية.

ومع انه كان يتمتع بميزة التفوق في عدد الجنود المقاتلين بنسبة اثنين الى واحد (تقول بعض التقديرات أن النسبة كانت ٦٩,٠٠٠ مقابل ٣٦,٠٠٠) فقد ترك بجرأة جزءاً كبيراً من خطه الممتد على مسافة ٦٥ ميلاً من دون دفاع لكي يحشد أقصى عدد من الجنود على الساحل، معتمداً على السيطرة في الجو وعلى عمليات الاستخبارات البالغة الفاعلية لابعاد العدو عن الثغرات في خطه الدفاعي.

مع حلول الليل كان الجزء الأكبر من قوات اللنبي قد تحرك بهدوء غرباً ليحتشد في بساتين الزيتون وبيارات الحمضيات في السهل الساحلي حيث الدفاعات ضعيفة، وقد تسترت هذه القوات بالأشجار ولم يكتشف أمرها. ومع حلول النهار تحركت وحدات صغيرة شرقاً ثم عادت للتحرك شرقاً المرة تلو المرة، مثيرة سحباً ضخمة من الغبار، مما أقنع الأتراك بأن جيشاً ضخماً يزحف للهجوم في الداخل. وفي الشرق أيضاً أقامت وحدات بريطانية صغيرة ما بدا انه معسكرات كبيرة، وضمنها اسطبلات وفيها ما بدا انه خيول. وأما شرقي نهر الأردن فقد رتب عملاء بريطانيون لاكتشاف انهم يعقدون صفقات لشراء كميات كبيرة من العلف.

جازت الخدعة على ليمان فون ساندرز فحشد قواته في الداخل في شرق فلسطين، ولما وقع الهجوم

بوغتت جيوشه وفقدت توازنها. لقد بلغ هجوم اللنبي حداً من الفاعلية بحيث لم يدرك قادة القوات العثمانية حقيقة الموقف إلا بعد انقضاء أيام على بدء الهجوم.

عند الساعة الرابعة والنصف من صباح ١٩ أيلول (سبتمبر) ١٩١٨ فتح نحو ٤٠٠ مدفع بريطاني النار فجأة على المدافعين العثمانيين عن السهل الساحلي الذين بوغتوا وكانوا أقل عدداً من القوات المهاجمة (٤٥,٠٠٠ مقابل ٨,٠٠٠). وبعد خمس عشرة دقيقة بدأ هجوم المشاة، وقد اكتسح الجنود البريطانيون والفرنسيون والهنود القوات المدافعة التي غلبها التفوق العددي، وتدفق الفرسان عبر الثغرة التي فتحت في الخطوط العثمانية ليربحوا معركة مجيدو ـ أرماجدون التوراة.

عند الفجر هاجمت أسراب خاصة من قاذفات سلاح الجو الملكي مقاسم الهاتف والبرق خلف خطوط العدو، فقطعت بصورة فاعلة جميع الاتصالات. وتولت طائرات أخرى من سلاح الجو الملكي مهمة الحراسة في الجو فوق مطارات العدو، فأقعدت طائرات الاستكشاف الألمانية وحالت دون تحليقها. وهكذا انقطعت المعلومات عن ليمان وضباطه في الميدان وانقطعوا عن بعضهم بعضاً.

وفيما كانت الوحدات العثمانية مندفعة في تراجعها، وجدت أن خطوط تقهقرها قد أغلقتها وحدات بريطانية كانت قد أسرعت من خلفها وسبقتها لتضمن السيطرة على الطرق الرئيسة. أما الفرسان الأستراليون والنيوزيلنديون، فقد اندفعوا شمالاً مسافة ثلاثين ميلاً على السهل الساحلي، ولكنهم بعد ذلك شقوا طريقهم الى الداخل مهددين بقطع خط تراجع العثمانيين الى دمشق. وقصفت الطائرات الحربية البريطانية الأتراك المتقهقرين بالقنابل والرشاشات. وفي أثناء ذلك قامت الوحدات القليلة التي كان اللنبي قد نشرها في الشرق بالهجوم على الداخل. وفي عتمة ما قبل بزوغ الفجر بتاريخ ٢٣ أيلول (سبتمبر) سيطرت وحدات من الفيلق اليهودي على مخاضة أم الشرط الهامة في نهر الأردن، فاندفع عبرها لواء الخيالة الثاني الاسترالي، ومع حلول المساء وجدت القوات العثمانية شرقي نهر الأردن نفسها محاطة بكماشة هائلة.

وفي معان، الواقعة في جنوب شرق الأردن، شمالي العقبة، صمدت الحامية التركية التي حاصرتها قوات فيصل منذ وصولها من العقبة في السنة السابقة، الى أن وصل الفرسان الاستراليون فاستسلمت الحامية لهم طالبة حمايتهم من المذبحة التي كانت تهددهم على أيدي محاصريهم العرب. وأبعد من ذلك شمالاً، قطعت قوات الهجانة التابعة لفيصل خطوط السكة الحديدية التي اعتمدت عليها القوات التركية الرئيسة.

في ٢٥ أيلول (سبتمبر) أمر اللنبي بالزحف على دمشق، أما فلول القوات العثمانية فقد انهارت ولاذت بالفرار[1]. كان احتلال المدن الرئيسة في المحافظات السورية وشيكاً، والقرارات الخاصة

(١) الرواية الواردة في النص مدينة بالكثير إلى السرد المفعم بالحيوية من قبل هوارد م. ساتشار في: **انبثاق الشرق الأوسط: ١٩١٤ ـ ١٩٢٤** (نيويورك: الفرد كنوبف، ١٩٦٩) من الصفحة ٢٣٨ وما يليها، وكذلك إلى روايات شهود عيان في: **الموسوعة البريطانية**، الطبعة الثانية عشرة تحت عنوان: «**الحملات التركية**».

بسياسة الاحتلال اتخذت بسرعة. لكن الجدل بشأن من يتخذ القرارات ولماذا يتخذها، كان مستمراً.

(٢)

كان اللنبي قد أبلغ لندن في الصيف انه، تبعاً لسلطته العسكرية العليا، سيقبل وجود مستشارين فرنسيين للتعامل مع الادارة المدنية في المناطق التي لفرنسا اهتمام خاص بها، بشرط أن تخبره لندن ما هي هذه المناطق وهل هي محددة في اتفاقية سايكس ـ بيكو[٢]. ومع أن مجلس الوزراء ولجنته الشرقية حبّذا بقوة التخلي عن اتفاقية سايكس ـ بيكو، فقد ثبتت وزارة الخارجية الاتفاقية بواسطة توجيه اللنبي الى اتباع الخطوط الاقليمية التي رسمتها. لقد وجه ليو ايميري، اللوم الشديد في ذلك الى كبار المسؤولين السياسيين في وزارة الخارجية، أي بلفور وسيسيل[٣]. بيد أن مارك سايكس، زميل ايميري كان هو المسؤول المباشر في وزارة الخارجية عن السياسة تجاه سورية ويغلب على الظن انه هو الذي اتخذ القرار أو أوصى باتخاذه في المقام الأول.

بتاريخ ٢٥ أيلول (سبتمبر) أصدرت وزارة الحربية تعليمات الى وينغيت في القاهرة والى اللنبي في مقر قيادته، تقضي في حالة وقوع سورية ضمن نطاق نفوذ أية دولة أوروبية بأن تكون فرنسا هي الدولة[٤]. وقد تركت صيغة التعليمات المجال مفتوحاً لاحتمال عدم وقوع سورية ضمن نطاق نفوذ دولة أوروبية ـ أي أن فيصل قد يحقق استقلالها. مع ذلك كانت التعليمات الصادرة الى اللنبي تقضي باستخدام ضباط فرنسيين في جميع مناطق الادارة المدنية (وقد فرقت التعليمات بين الادارة المدنية والادارة العسكرية). وجاء في برقيات وزارة الحربية انه إذا ما استولى اللنبي على دمشق «سيكون من المرغوب فيه، انسجاماً مع الاتفاقية الانكليزية ـ الفرنسية لعام ١٩١٦ أن يعمل إذا أمكن عن طريق إدارة عربية بواسطة ضابط ارتباط فرنسي»[٥].

تقرر أن تكون الأعلام هي المؤشر للمناطق المخصصة للإدارة المؤقتة. وقد سمحت وزارة الخارجية البريطانية، بل أمرت برفع علم الحسين فوق دمشق والمدن السورية الهامة الأخرى عند الاستيلاء عليها[٦]. وكان العلم هو العلم ذو الألوان الأسود والأبيض والأخضر والأحمر الذي وضع تصميمه سايكس والذي خدم غايتين سياسيتين: تعزيز مطالبة الحسين بالزعامة في

(٢) كيو. مكتب السجل العام. أوراق المكتب العربي. وزارة الخارجية ٨٨٢، المجلد ١٧ الصفحتان ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٣) **مفكرات ليو ايميري**، المجلد ١: ١٨٩٦ ـ ١٩٢٩ أعدها للطباعة جون بارنز وديفيد نيكولسون (لندن: هتشنسون، ١٩٨٠)، ص ٢٤١.

(٤) اوكسفورد. مكتبة بودليان. أوراق ميلنر. فلسطين. ١٤٠/١٦٤.

(٥) المرجع نفسه، ١٤٠/١٥٤.

(٦) المرجع نفسه، ١٤٠/١٥٦.

سوريـة العـربية(*) وتذكير فرنسا بأن سورية الداخلية محسوب لها أن تنال على أقل تقدير استقلالاً عربياً اسمياً.

عقد بتاريخ ٢٥ أيلول (سبتمبر) مؤتمر في مدينة جنين الفلسطينية أقر فيه اللنبي الخطط التي رسمها الجنرال الاسترالي هاري شوفيل ـ مسؤول العملية ـ للتقدم نحو دمشق. وتفيد مذكرات كتبهـا شوفيل في ما بعد انه أثار موضوع سياسة الاحتلال، فقال ان دمشق مدينة يسكنها ٣٠٠,٠٠٠ نسمة أي انها أكبر من أن تسلم الى حاكم عسكري وحفنة من المساعدين. فأجابه اللنبي انه يستطيع الاحتفاظ بالحاكم العثماني والادارة العثمانية وأن يزودهما بأي عدد قد تدعو الحاجة اليه من الشرطة العسكرية لحفظ النظام. فسأل شوفيل عن الشائعات القائلة ان الحركة العربية ستحكم سورية، ولكن اللنبي أجاب بأن أي قرار في هذا الشأن يجب أن ينتظر حتى يصل هو شخصياً الى دمشق. وأضاف: «إذا سبب لك فيصل أية متاعب، تعامل معه عن طريق لورنس الذي سيكون ضابط اتصال في تصرفك»[٨].

جرى تبادل سريع للبرقيات بين لندن وباريس والشرق الأوسط. ومع أن اللنبي أبلغ شوفيل أن يحتفظ بالإدارة التركية في دمشق في ذلك الحين، فان وزارة الخارجية أبلغت الحكومة الفرنسية أن اللنبي سيتعامل مع إدارة عربية مؤقتة في دمشق ـ وفقاً لاتفاقية سايكس ـ بيكو بواسطة ضابط اتصال فرنسي[٩]. ووافقت الحكومة الفرنسية بدورها على اعتراف الحلفاء بالعرب كقوة محاربة ـ بعبارة أخرى الاعتراف بهم كطرف حليف[١٠]. هذه المراسلات بين بريطانيا وفرنسا تبين أن وزارة الخارجية البريطانية توقعت من اللنبي أن يستبدل بالادارة التركية في دمشق إدارة عربية إن آجلاً أم عاجلاً، ولكنها كانت تعتقد أن ترتيبات سايكس ـ بيكو لن تدخل في الصورة حتى ذلك الحين.

تسلحت وزارة الخارجية البريطانية بهذه الاتفاقات، فجعلت وزارة الحربية ترسل الى اللنبي تعليمات جديدة وهامة فيها تطوير للموضوعات السياسية التي سبق التلميح اليها. فالأراضي السورية التي كان اللنبي على وشك احتلالها يجب أن تعامل بصفة «أرض حليفة متمتعة بمكانة دولة مستقلة» لا أن تعامل بصفة أرض عدوة محتلة. وفي هذا الصدد أصدرت وزارة الخارجية توجيهـاتهـا التي كثـر الحديث عنها والتي تقضي بأن: «من المرغوب فيه أن نعطي دليلاً على

(*) في مطلع عام ١٩١٨ كتب جيلبرت كلايتون الى سايكس قائلاً: «إذا أجاد فيصل العمل بالمفهوم العسكري فسينال سورية»، اما إذا لم يجد العمل فما من أحد من مكة ستكون له علاقة بالسياسة السورية[٧]. ان رفع العلم سيكون تأكيداً رمزياً لنجاح فيصل العسكري الذي قد يمهد الطريق لزعامته السياسية.

(٧) كيو. مكتب السجل العام. أوراق المكتب العربي. وزارة الخارجية ٨٨٢. المجلد ٢٤ الوثيقة ٣٦٧٥٧.

(٨) اوكسفورد. كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق اللنبي. د.س. ٢٤٤/٤.

(٩) دورهام. جامعة دورهام. محفوظات وثائق السودان. أوراق ريجنينالد وينغيت. ١٩٠/٩/١ ـ ١٥٨.

(١٠) المرجع نفسه، ١٥٠/١/١ ـ ١٠٥.

الاعتراف بحكم عربي من أهل البلاد وتأسيس هذا الحكم، وذلك بواسطة عمل بارز أو له صفة رسمية مثل رفع العلم العربي وأداء التحية له في المراكز الهامة»[١١].

مضى سايكس في البرقية (ان صح انه هو الذي أعدها) شارحاً خطة تدل على نبوغ خاص. فالاتفاق القائم مع فرنسا هو انه حيثما أقامت بريطانيا إدارة عسكرية في المحافظات السورية يحق لفرنسا أن يمارس ضباطها الادارة المدنية كلها باسم الحلفاء. وكانت التعليمات الى اللنبي في البرقية التي تحمل تاريخ ١ تشرين الأول (أكتوبر)، أن يجعل منطقة الادارة العسكرية الخاضعة له في الحدود الدنيا، مما يحد بالتالي من الدور الفرنسي. وأبلغته وزارة الخارجية أيضاً أن يخفض الادارة العسكرية البريطانية في شرق الأردن أيضاً، بحيث لا تتمكن فرنسا من القول أن الاجراء الذي تتخذه بريطانيا في داخل سورية جزء من خطة لتخفيض دور فرنسا هناك ـ وبطبيعة الحال كانت هذه هي خطة بريطانيا.

كتب وينغيت، الذي قرأ البرقيات، الى اللنبي قائلاً: «سيكون أمراً مثيراً جداً للاهتمام أن نرى كيف سيتقبل مختلف الأطراف علم الشريف حسين وضابط الاتصال الفرنسي»[١٢]. والواقع أن وزارة الخارجية البريطانية أصدرت تعليماتها الى اللنبي بأن يطبق المتطلبات الرسمية لاتفاقية سايكس ـ بيكو، مع تنقيح روح الاتفاقية (وفقاً لما دعا اليه مارك سايكس).

ولم يكن هذا الحل ليرضي الفرنسيين، الذين أرادوا المزيد، ولا لفيصل أو المكتب العربي، اللذين أرادا ألا تحصل فرنسا على أي شيء البتة.

كانت اتفاقية سايكس ـ بيكو تقضي باعطاء فرنسا السيطرة المباشرة على الخط الساحلي. أما سورية الداخلية فكان مقرراً أن تكون مستقلة ـ ليس استقلالاً بالاسم فقط كما هو منظور في الاتفاقية ـ بل أن يكون لها استقلال ذا مضمون. ولكن يكون لفرنسا ضابط اتصال، حسبما تقضي الاتفاقية، وربما في ما بعد مستشار رسمي في بلاط فيصل، ويكون حاكم سورية، وفق مراسلات مكماهون، هاشمياً. وسيرمز رفع العلم الذي وضع سايكس تصميمه فوق دمشق وحمص وحماة وحلب، الى نسيج كل خيوط السياسة البريطانية الشرق أوسطية على النحو الذي دعا اليه سايكس دائماً. وكان سايكس يقول دائماً انه صاغ التزامات بريطانيا على نحو يجعلها متجانسة مع بعضها بعضاً، وان جميع هذه الالتزامات سوف تتلاءم ضمن الاطار الرسمي للاتفاقية التي ابتكرها.

في أثناء ذلك تقرر بتاريخ ٢٩ أيلول (سبتمبر) في مقر القيادة الميدانية للجنرال اللنبي أن يكون عرب فيصل الوحيدين من قوات الحلفاء الذين يدخلون دمشق ويحتلونها، ربما لمنع المقاومة من قبل عاصمة اسلامية قد تكون معادية لاحتلال مسيحي(*) . ولكن فيصل كان على بعد مسيرة

---

(١١) اوكسفورد. مكتبة بودليان. أوراق ميلنر. فلسطين. ١٤٠/ ٦٤.

(١٢) دورهام. جامعة دورهام. محفوظات وثائق السودان. أوراق ريجينالد وينغيت. ١٥٠/١/١ ـ ١٠٥.

(*) ليس هناك دليل كاف على من الذي اتخذ القرار ولماذا اتخذه. ان تقريراً رفعه الجنرال جيلبرت كلايتون، كبير =

ثلاثة أيام من دمشق. ولذلك صدرت التعليمات في تلك الأثناء الى وحدات الفرسان الاستراليين والنيوزيلنديين التي كانت تطارد الأتراك بالالتفاف حول دمشق بدلاً من عبورها.

ولكن ما حدث في فوضى التقدم والتقهقر، هو أن الممثلين في دراما تحرير دمشق لم يتقيدوا بالنص المكتوب الموجه اليهم من قبل اللنبي وكلايتون. لم تبق الحكومة العثمانية في المدينة، بل هربت مع الجيش التركي المتقهقر ظهر ٣٠ أيلول (سبتمبر)، مخلفة وراءها الفوضى. وفي لحظة ما، أمسك بزمام الأمور في المدينة وجيهان عربيان محليان، هما الأمير عبدالقادر وأخوه سعيد، من نسل المناضل الجزائري الذي حارب الفرنسيين قبل قرن من الزمن وتلقيا إعانة مالية للعيش في المنفى، هذان الشقيقان اللذان رأى فيهما لورنس عدوين شخصيين وربما رأى فيهما أيضاً نصيرين للحسين وللإسلام بدلاً من أن يكونا نصيرين لفيصل وللقومية، قد ادعيا انهما رفعا علم الحجاز باسم الحسين بعد ظهر ٣٠ أيلول (سبتمبر). ولذلك عندما رفع العلم العربي أخيراً، لم يكن لرفعه علاقة بخطة وزارة الخارجية البريطانية. فقد رفعه عرب دمشق على مسؤوليتهم.

عند أول شعاع ضوء صباح الأول من تشرين الأول (أكتوبر)، قرر لواء من الفرسان الاستراليين صدر اليه الأمر بقطع خط تراجع العثمانيين الى طريق حمص شمال دمشق، أن يمر عبر دمشق لقطع طريق حمص، فدخل المدينة، وعندها رحب سعيد عبدالقادر ومن حوله الوجهاء، باللواء الاسترالي ترحيباً رسمياً. وهكذا نال الاستراليون، خلافاً للخطة، شرف كونهم أول من دخل دمشق من القوات الحليفة.

بعد مرور ساعة من الزمن انضم الجنرال شوفيل وأركان حربه الى الميجور جنرال سير جورج بارو، القائد المحلي للفرقة، على بعد بضعة أميال جنوبي المدينة. وكان يفترض بلورنس أن يكون مع بارو، وقد رغب شوفيل في مقابلته للبدء في وضع الترتيبات للمحافظة على الادارة المدنية القائمة في المدينة. ولحسرة شوفيل اكتشف أن لورنس تسلل خارجاً من المدينة من دون إذن ومن دون ابلاغ أحد، لكي يتبع فرقة الفرسان الخامسة الى دمشق، وقد استعار شوفيل سيارة قادها بنفسه الى دمشق ليتبيّن ما يحدث فيها.

آنذاك كانت الخطة التي أعدها اللنبي ـ كلايتون ليكون فيصل هو محرر المدينة، في حالة يرثى لها. كان فيصل على بعد مسيرة أيام من دمشق بينما كان البريطانيون والاستراليون في داخلها، محاولين التحرك في شوارعها أو آملين أن يعرفوا ما يجري فيها. وبدلاً من أن ينفذ شوفيل الأمر

= الضباط السياسيين في قيادة اللنبي، الى وزارة الخارجية، يدل على أن كلايتون لا بد أن يكون قد خشي حدوث اضطراب في المدينة اذا احتلها الاستراليون، ربما لأن الدمشقيين قد يخمنون أن بريطانيا تنوي تسليمهم للفرنسيين. وكان كلايتون يعبّر طوال الوقت عن مخاوفه من أن تثير بريطانيا ـ بظهورها مظهر الشريك لفرنسا ـ عداء العرب السوريين. وقد جاء في تقرير رفعه كلايتون في ما بعد الى وزارة الخارجية «ان سماحنا لقوات الشريف باحتلال دمشق قد بدّد بعض الريب في نيات فرنسا»[١٣].

(١٣) كيو. مكتب السجل العام. أوراق المكتب العربي. وزارة الخارجية ٨٨٢، المجلد ١٧ الصفحتان ١١٩ ـ ١٢٠.

الصادر اليه بعدم السير على رأس جنوده الى داخل المدينة، كان الآن يتبعهم اليها.

أما لورنس، ضابط الاتصال الملحق بقيادة شوفيل، فقد توجه صباح ذلك اليوم في سيارته الأثيرة الى نفسه، وهي سيارة رولز رويس مصفحة تعرضت لضربات عديدة، ومعه فيها ضابط بريطاني زميل له يدعى و. سترلنغ، وكذلك نوري السعيد الضابط السابق في الجيش العثماني ومن كبار الموالين لفيصل - قاصداً مدينة دمشق، حيث وجد أن بعض رجال القبائل المتحالفين مع فيصل، قد سبقوه في الوصول وقبلوا بالشقيقين عبدالقادر حاكمين لدمشق. ولكن نوري السعيد قام بحركة انقلابية سريعة فأمر الشقيقين عبدالقادر بالانسحاب وعين مرشحه، وهو من الموالين لفيصل، حاكماً للمدينة. عندها وصل الجنرال شوفيل محتداً وطلب تفسيراً لما حدث.

أخذ لورنس يقدم أعذاراً فقال انه ظن أن شوفيل رغب منه أن يستكشف الموقف وادعى انه كان على وشك العودة ليرفع تقريره.

ولما طلب شوفيل الى لورنس أن يحضر له حاكم المدينة أحضر لورنس مرشح نوري السعيد، مدعياً أنه الحاكم. ولكن شوفيل قال ان ذلك هراء، فمرشح نوري السعيد واضح انه عربي، بينما الحاكم العثماني لا بد أن يكون تركياً. وكان جواب لورنس ان الحاكم العثماني هرب من المدينة (وكان ذلك صحيحاً) وان الشعب انتخب مرشح نوري السعيد ليحل محله (وكان هذا تزويراً).

قبل شوفيل كلام لورنس على علاته فثبت تعيين مرشح نوري السعيد الموالي لفيصل حاكماً للمدينة. وقد روى شوفيل انه سرعان ما علم أن مرشح نوري السعيد كان مدعوماً من فئة صغيرة من أنصار فيصل، وان السكان عامة قد أزعجهم هذا التعيين بعد أن أعلنه على الملأ. بيد أنه وقد واجه اضطرابات خطيرة أدخل قواته البريطانية الى المدينة في محاولة لادخال الرهبة في نفوس المعارضة. وكان هذا بالضبط ما كان اللنبي وكلايتون يأملان في تجنبه: أي اثارة خواطر السكان، وإنزال أرتال جنود مسيحيين في شوارع مدينة اسلامية كبيرة لاستعادة النظام، بينما جنود فيصل العرب - وكان القصد من وجودهم هو طمأنة الرأي العام المحلي - لم يظهروا بعد في أي مكان من المدينة.

صباح ٣ تشرين الأول (أكتوبر)، وليس قبل ذلك، أعلن لورنس أن فيصل وبضع مئات من أتباعه على وشك أن يصلوا، وطلب الاذن بالاعداد لوصولهم المدينة دخول المنتصرين. وكتب شوفيل في ما بعد متذمراً: «إنه لم يكن لفيصل شأن يذكر «بفتح» دمشق، ولذلك لم تستهوه كثيراً فكرة دخول المنتصرين، ولكنه لم ير فيها ضرراً فأعطى الاذن وفقاً لذلك»[١٤].

اتخذت الترتيبات ليكون هذا الدخول عند الساعة الثالثة بعد ظهر ذلك اليوم، ولكن برنامج اللنبي لم يسمح بالتنفيذ. فلم يكن وقت اللنبي يتسع لأكثر من بضع ساعات يمضيها بعد ظهر ذلك اليوم في دمشق، فطلب الى فيصل ولورنس موافاته في فندق فيكتوريا، الذي كان يقيم فيه.

(١٤) اوكسفورد. كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق اللنبي. د.س. ٢٤٤/٤.

كان الدافع لزيارة اللنبي هو تعيين شوفيل عربياً من انصار فيصل في منصب الحاكم، الأمر الذي حرك اتفاقية سايكس ـ بيكو واتفاق الحلفاء على أن يتعامل اللنبي مع ادارة عربية في سورية عبر الفرنسيين. فلو كانت أوامر اللنبي الأصلية قد نفذت ـ أي الاحتفاظ موقتاً بحاكم تركي ـ لأمكن تأجيل هذا التعقيد، أما الآن فلا بد من مواجهته. ولم يوجه اللنبي اللوم الى شوفيل، ولكنه ذكر ان ما فعله قد أدى الى تعقيدات مع الفرنسيين تتطلب اجتماعاً فورياً مع فيصل.

حضر الاجتماع اللنبي وشوفيل وفيصل ورؤساء أركانهم وضباط من البعثة البريطانية في الحجاز ومسؤول من المكتب العربي في القاهرة والقائد العام لقوات فيصل، وقام لورنس بمهمة الترجمة.

وفي هذا اللقاء شرح القائد البريطاني للأمير العربي شرحاً مفصلاً الترتيبات التي اتفقت عليها بريطانيا وفرنسا، مؤكداً عزمه على تطبيقها ما لم، وإلى أن، تُعدّل في مؤتمر الصلح. كانت أحكام الاتفاقية هي بالضبط تلك التي طلب اليه سير مارك سايكس ووزارة الخارجية أن يدعمها. وهكذا فقد تلاشت بعد ظهر ذلك اليوم أية آمال راودت لورنس ، أو اوحى بها الى فيصل، بأن يساعدهما كلايتون واللنبي في تقويض سياسة وزارة الخارجية. ولم يكن سبب خيبة أمل فيصل المريرة أن الاتحاد الكونفيدرالي العربي لن يشمل فلسطين ـ فهو قال انه يقبل بذلك ـ وانما لأنه لن يشمل لبنان (بعبارة أخرى الجبال «البيضاء») ولأن سورية لن تكون متحررة من الاشراف الفرنسي.

ووفقاً لمحضر الاجتماع الذي دونه شوفيل قال اللنبي (يشار اليه بكلمة «الرئيس») بعبارات بسيطة لفيصل:

(أ) ستكون فرنسا دولة الحماية في سورية.

(ب) سيتولى هو، أي فيصل، بصفته ممثل والده، الملك حسين، الادارة في سورية (ما عدا فلسطين وولاية لبنان) تحت توجيه فرنسا وبدعمها المالي.

(ج) الحيّز العربي يشمل داخل سورية فقط ولا شأن لفيصل بلبنان.

(د) يجب أن يكون لدى فيصل في الحال ضابط اتصال فرنسي، وهذا الضابط يعمل راهناً مع لورنس الذي ينتظر منه أن يقدم له كل مساعدة.

اعترض فيصل اعتراضاً شديداً، وقال انه لا علم له بأية علاقة لفرنسا بهذا الشأن، وانه مستعد لقبول المساعدة البريطانية، وانه فهم من المستشار الذي أرسله اليه اللنبي أن العرب سيحصلون على سورية بكاملها ومن ضمنها لبنان ولكن باستثناء فلسطين، وانه يرفض قبول ضابط اتصال فرنسي أو الاعتراف بالتوجيه الفرنسي بأي شكل من الأشكال.

التفت «الرئيس» الى لورنس قائلاً: «ولكن ألم تخبره أن الحماية على سورية ستكون لفرنسا؟»، فأجاب لورنس : «كلا يا سيدي، لا علم لي بشيء من ذلك». عندها قال «الرئيس»: «لكنك تعرف حتماً ان لا علاقة له، أي فيصل، بلبنان» فقال لورنس : «كلا، يا سيدي، لا أعرف».

وبعد مزيد من الحديث قال «الرئيس» لفيصل انه هو، سير ادموند اللنبي، القائد العام وانه هو

، فيصل، لواء تحت امرته وعليه اطاعة الأوامر. ويجب عليه قبول الوضع إلى أن تسوى الأمور كلها عند انتهاء الحرب. وقبل فيصل هذا القرار وغادر مع حاشيته، باستثناء لورنس[15].

لم يكن فيصل ولورنس صريحين مع اللنبي الواضح العبارة. فالأحكام التي تُليت عليهما هي أحكام اتفاقية سايكس ـ بيكو التي كان جميعهم مطلعين عليها. وما قصده فيصل بانكار معرفته لهذه الأحكام (حسب تفسير لورنس لاحقاً في لندن) انها لم تبلغ اليه رسمياً[16]. أما لورنس فلم يكن له مثل هذا العذر، وكان ببساطة يكذب[*].

بعد مغادرة فيصل الاجتماع، قال لورنس لاللنبي انه غير مستعد للعمل الى جانب مستشار فرنسي لفيصل. وقال لورنس ان له بعض الاجازات المتراكمة ويود أن يستفيد منها فوراً وأن يعود الى بريطانيا. فوافق اللنبي. وكل المؤشرات تفيد بأنه لم يكن غاضباً البتة من لورنس، بل كان أبعد ما يكون عن الغضب، إذ انه شجع لورنس على الذهاب الى لندن ليدافع عن قضيته شخصياً لدى وزارة الخارجية.

عاد فيصل، بعد انسحابه من الاجتماع، ليقود دخوله الى دمشق دخول المنتصرين، بعد أن تأخر هذا الدخول وفقد الكثير من مغزاه. وكان دخول فيصل على رأس ما بين ٣٠٠ و٦٠٠ فارس. ثم ان فيصل أرسل، ربما بتشجيع من لورنس (الذي أنكر ذلك في ما بعد) قوة مغاوير مؤلفة من مئة رجل من أتباعه الى بيروت، فدخلوها دون أن يلقوا مقاومة ورفعوا فوقها علم الحجاز العربي في الخامس من تشرين الأول (أوكتوبر). وقد ذعر الفرنسيون فأرسلوا في اليوم التالي سفناً حربية الى مرفأ بيروت وأنزلوا وحدة صغيرة من الجنود. وفي الثامن من تشرين الأول (أكتوبر) دخلت المدينة قوات هندية تابعة للحملة المصرية التي يقودها اللنبي. وأخذ اللنبي زمام الموقف بيده فأمر القوة التي أرسلها فيصل بانزال العلم العربي والانسحاب. فلما انسحبت، ترك السيطرة على المدينة للفرنسيين. بعد ذلك وصل فرانسوا جورج بيكو ليعمل بصفة ممثل فرنسا المدني والسياسي في المنطقة خاضعاً للسلطة العليا التي يتمتع بها اللنبي بصفته القائد العام.

أشار كلايتون على فيصل أن يستعيد اتباعه من لبنان. وكتب الى وينغيت بتاريخ ١١ تشرين الأول (اكتوبر) قائلاً: «لقد ابلغت فيصل انه لن يجني سوى الإساءة الى قضيته في مؤتمر الصلح إذا حاول أن ينتزع منطقة ما... انها ليست مشكلة سهلة. آمل في التوصل الى ترتيب موقت بشيء من الأخذ والعطاء من كلا الجانبين...»[17].

---

(١٥) المرجع نفسه.

(١٦) كيو. مكتب السجل العام. مجلس وزراء الحرب. اللجنة الشرقية. سي.اي.بي ٢٧/ ٢٤ الصفحات ١٤٨ـ ١٥٢.

(*) في الفصل ١٠١ من كتابه «اعمدة الحكمة السبعة»، اعترف بأنه كان مطّلعاً على الاتفاقية و«لحسن الحظ كنت قد وشيت لفيصل بوجود الاتفاقية...».

(١٧) دورهام. جامعة دورهام. محفوظات وثائق السودان. أوراق ريجينالد وينغيت. ١٥٠/ ٢/ ١ ـ ١١٢.

تبين أن القوات المسلحة الفرنسية في بيروت أضعف من أن تنفذ برنامج الضم بكامله، الذي كان يتوق اليه الحزب الاستعماري في فرنسا، ولذلك اتبع العملاء الفرنسيون موقفاً تراجعياً تهيئة لاحتمال اخفاق مطالبتهم بسورية كلها(*). كانت الخطة، وهي من تدبير ضباط فرنسيين في الميدان، أن تقتطع فرنسا من سورية دولة مستقلة لا تشمل المناطق المسيحية من جبل لبنان فحسب بل تشمل أيضاً منطقة كبيرة من أراضٍ أخرى. غالبية سكانها مسلمون، على أن يحكم هذه الدولة المسيحيون الموارنة تحت رعاية فرنسا[١٩]. ان الأنشطة التي جرت من أجل تنفيذ هذه الخطة أسهمت في زيادة تفتيت الحياة السياسية التي كانت قد أخذت تسبب الاضطراب خلف خطوط الحلفاء.

وتحت سطح الترتيبات المنتظمة التي أعدها اللنبي في سلسلة القيادة، كانت تحتدم نزاعات ومؤامرات وروح طائفية في أعقاب اختفاء السلطة العثمانية. فالبدو اشتبكوا مع سكان المدن، والأعداء السابقون تحركوا لوضع أيديهم على حركة فيصل من داخلها، وسويت في أماكن مظلمة شجارات غامضة. وفي دمشق أطلقت شرطة فيصل النار على الأمير عبد القادر فقتلته، فزعموا انه حاول الهرب عندما جاءت الشرطة لالقاء القبض عليه.

وكانت بيئة الطبيعة أشد عصياناً. فقد انتشرت الملاريا بين الفرسان البريطانيين خلال مرورهم في أراضٍ يسيطر عليها الأتراك حيث الرعاية الصحية مهملة. وبعد أسبوعين أصاب المرض كتائب بكاملها فيما كان فتح المحافظات السورية يكتمل. وجاءت الأنفلونزا بعد الملاريا فإذا بها لا تقل عن الملاريا انهاكاً للجسم، وتحصد الأرواح على نطاق واسع.

(٣)

أوعز اللنبي ـ من مقر قيادته في الشرق الأوسط، باتخاذ ترتيبات لاستقبال الكولونيل لورنس استقبالاً حاراً في لندن عند وصوله اليها ليدافع عن قضيته ضد فرنسا. وفي نهاية تشرين الأول (أكتوبر) مثل لورنس أمام اللجنة الشرقية المنبثقة عن مجلس الوزراء، فأبلغ اللجنة أن بيكو أراد أن يفرض مستشارين فرنسيين على فيصل، ولكن فيصل ادعى الحق في اختيار من يشاء من المستشارين. اضافة الى ذلك فانه يريد إما مستشارين بريطانيين أو ـ ويا للغرابة، نظراً للعداوات التي تطورت لاحقاً ـ مستشارين يهوداً صهيونيين أميركيين[٢٠].

(*) بعض الجنود الفرنسيين كانوا من اللاجئين الارمن الذين جرى تجنيدهم، وآخرون كانوا جنوداً من اهالي شمال أفريقيا. وقيل أن القوة بكاملها كانت مؤلفة فقط من ٣,٠٠٠ ارمني، و٣,٠٠٠ افريقي ومن (٨٠٠ فرنسي تلقوا وعداً بألا يضطروا للقتال)[١٨].

(١٨) كريستوفر م. اندرو وا.س. كانيا ـ فورستنر، **ذروة التوسع الامبراطوري الفرنسي: ١٩١٤ ـ ١٩٢٤** (ستانفورد: مطبعة جامعة ستانفورد، ١٩٨١)، ص ١١.

(١٩) المرجع نفسه، ص ١٦١.

(٢٠) كيو. مكتب السجل العام. مجلس وزراء الحرب، اللجنة الشرقية. سي.اي.بي ٢٧/٢٤ الصفحات ١٤٨ ـ ١٥٢.

ووفقاً لما قاله لورنس ، اعتمد فيصل على أحكام «الإعلان الى السبعة»، أي الوثيقة التي عرض فيها سير مارك سايكس نيات الحلفاء، والتي سلمها الى زعماء المهاجرين السوريين في القاهرة المناوئين لفيصل. وباسم فيصل، أساء لورنس تفسير الإعلان، مدعياً ان الإعلان وعد باستقلال العرب في أية منطقة حرروها بأنفسهم. (واضح من سياق الاعلان انه وعد بالاستقلال فقط في المناطق المحررة من قبل العرب حتى تاريخ صدور الإعلان في حزيران (يونيو) ١٩١٨، أما المناطق التي كانت لا تزال في أيدي العثمانيين حتى ذلك التاريخ، فقد وضعت في فئة منفصلة). وكان تفسير فيصل نفسه للإعلان أشد خطأ، وقيل انه ادعى أنه توصل الى اتفاق مع البريطانيين والفرنسيين، وبموجب هذا الاتفاق يكتسب أول من يصل الى مدينة ما الحق في أن يحكمها[٢١].

أخذ لورنس يتشبث بالقول ان قوات فيصل كانت في الحقيقة أول من دخل دمشق، وإن أربعة آلاف من رجال القبائل المرتبطين بقضية فيصل تسللوا تحت جنح ليل ٣٠ أيلول (سبتمبر) ـ ١ تشرين الأول (أكتوبر) فكانوا أول جنود للحلفاء وصلوا الى المدينة. ولكن الأدلة الواردة من مصادرها مباشرة أفادت أن هؤلاء الأربعة آلاف من نسج الخيال كلياً. فلا أحد رآهم هناك، ولا أحد رآهم يدخلون أو يغادرون ـ مع انهم في دخولهم أو مغادرتهم كان لا بد لهم من اجتياز الخطوط البريطانية[٢٢].

لقد وجد لورنس ، مع ذلك، في اللجنة الشرقية وفي مجلس الوزراء مستمعين تعاطفوا مع مرافعته القائلة انه يجب عدم ادخال النفوذ الفرنسي أو السيطرة الفرنسية الى الشرق الأوسط الاسلامي الناطق بالعربية. ووجد أيضاً في الصحافة حلفاء لهم أهميتهم.

ففي نهاية تشرين الثاني (ديسمبر) ١٩١٨ نشرت جريدة «التايمز» عدة مقالات مغفلة التوقيع، كتبها لورنس ، تضمنت رواية فيها الكثير من المبالغة لما أنجزته قوات فيصل، وذكرت المقالات ان هذه الرواية مستقاة من مراسل شاهد عيان. وأخذت رواية لورنس للحقائق تجد طريقها الى النشر في مطبوعات دورية أخرى أيضاً، الأمر الذي أزعج الجنود الاستراليين في سورية. وقد كتب مراسل «التجمع» الرسمي لصحف لندن المرافق «لقوات حملة اللنبي المصرية» ان: «مقالة طبعت في جريدة رسمية ووزعت على الجنود تفيد أن الجيش العربي كان أول من دخل دمشق. ان الفضل في الاستيلاء على دمشق ودخولها أولاً يعود الى الفرسان الاستراليين، وقد سارع الجنرال شوفيل الى تصحيح الخطأ»[٢٣].

استمر لورنس ، لأسباب شخصية وسياسية أيضاً، يتمسك بالادعاء أن قوات فيصل حررت دمشق. وكان على جانب عظيم من الكفاءة الفنية الى حد انه أفلح في دسّ جانب على الأقل من

---

(٢١) جوكا نيفاكيفي، **بريطانيا وفرنسا والشرق الأوسط العربي ١٩١٤ ـ ١٩٢٠** (لندن: مطبعة اتلون، ١٩٦٩)، ص ٧٢ الحاشية ٣.

(٢٢) أوكسفورد. كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق اللنبي. د.س. ٢٤٤/٤.

(٢٣) و.ت. ماسي، **انتصار اللنبي النهائي** (نيويورك: ا. ب. دوتون، ١٩٢٠)، الصفحتان ١٨ ـ ١٩.

روايته في السجلات الرسمية. ولا بد انه عرف أن ادعاءه الزائف سينفضح إن عاجلاً أو آجلاً. وعندما عزم الشاعر والروائي روبرت غريفز، وهو صديق للورنس ، كان يكتب في العشرينيات سيرة حياة لورنس ، أن يستند في سرده لتحرير دمشق على ما ذكره لورانس في كتابه «أعمدة الحكمة السبعة». حذره لورنس قائلاً: «عندما كتبت الفصل المتعلق بدمشق كنت أمشي على طبقة رقيقة من الجليد، وكل من يقتبس عني سيسقط تحت هذه الطبقة إذا لم ينتبه. ان (الأعمدة السبعة) مليئة هنا بأنصاف الحقيقة»[٢٤].

(٤)

استخدم لورنس روايته عن حملة دمشق ليحاول اقناع حكومته بنبذ اتفاقية سايكس ـ بيكو، التي أراد جميع من تحدث اليهم تقريباً من المسؤولين التملص منها. وكان جيلبرت كلايتون قد كتب الى لورنس في عام ١٩١٧ قائلاً انه مع التزام بريطانيا التزام شرف بالاتفاقية، فمن شأن الاتفاقية أن تموت من ذاتها إذا أُهملت: «انها في الحقيقة ميتة، وإذا انتظرنا بهدوء، فسرعان ما تصبح هذه الحقيقة واقعاً»[٢٥]. وفي عام ١٩١٨ أخبر كلايتون بيكو انه لم يعد ممكناً تطبيق الاتفاقية لأن «أوانها انتهى كلياً»[٢٦].

كان أمل «اللجنة الشرقية» أن تلغي ـ لا أن تهمل فقط ـ اتفاقية سايكس ـ بيكو، وظنت أن وزارة الخارجية سوف تتدبر أمر تعديلها أو الغائها في سياق المفاوضات بشأن كيفية ادارة الأراضي المحتلة. أما وزارة الخارجية فلم تفعل شيئاً من ذلك، وانما كان موقفها أن بريطانيا ملتزمة بالاتفاقية التزاماً مطلقاً ما لم توافق فرنسا على تغييرها أو الغائها. وعندما اطلع اللورد كورزون، رئيس «اللجنة الشرقية» على الأحكام التي صيغت بالاتفاق مع فرنسا، لاحظ بشيء من الحدة: «ان وزارة الخارجية بدت الآن معتمدة على اتفاقية سايكس ـ بيكو التي ما فتئت (اللجنة) تبذل قصارى جهدها للخلاص منها»[٢٧].

وأما سير مارك سايكس، الذي صاغ مع الفرنسيين أحكام الترتيبات الادارية، فقد ظل يعتقد أن اتفاقية سايكس ـ بيكو تلبي الاحتياجات الراهنة. وقد كتب في ربيع عام ١٩١٧ الى بيرسي كوكس، كبير الضباط السياسيين في الادارة البريطانية في بلاد الرافدين، ان احدى فضائل الاتفاقية انها وضعت في قالب بحيث لا تنتهك المبادىء التي تتبناها أميركا وودرو ويلسون وروسيا الاشتراكية الجديدة في ما يتعلق بتقرير المصير القومي وعدم الضم. وكتب يقول: «قد

---

(٢٤) من ت. ا. **لورنس إلى كاتب سيرة حياته، روبرت غريفز** (نيويورك: دبلداي، دوران، ١٠٩٣٨)، ص ١٠٤.

(٢٥) دورهام. جامعة دورهام. محفوظات وثائق السودان. أوراق كلايتون الرئيسة، جي/ا.س. ٥١٣ الملف ١.

(٢٦) اوكسفورد. مكتبة بودليان. أوراق ميلنر. فلسطين ١٤٠/٢١ ـ ٢٢.

(٢٧) نيفاكيفي، **بريطانيا وفرنسا والشرق الاوسط العربي**، ص ٧٤.

تكون فكرة القومية العربية سخيفة، ولكن قضيتنا الجماعية ستكون بخير إذا استطعنا القول اننا نساعد على تطوير عرق من البشر على أسس قومية تحت حمايتنا». ومضى قائلاً إن الحسين قد لا يقدم كبير مساعدة في الحرب مادياً، ولكنه يقدم مساعدة معنوية ينبغي لفرنسا أن تقرّ بها «وأظن أن الفرنسيين سيكونون مستعدين للتعاون معنا في سياسة مشتركة إزاء الشعب الناطق بالعربية»[٢٨].

وكتب ديفيد هوغارث، رئيس المكتب العربي الى جيلبرت كلايتون آنذاك قائلاً لا أحد، سوى سير مارك سايكس، يحمل اتفاقية سايكس ـ بيكو محمل الجد ويؤيدها[٢٩]. وكان في هذا شيء من المبالغة، لأن مسؤولي وزارة الخارجية التي التحق سايكس بها حملوا الاتفاقية على محمل الجد، ولكن هذا الكلام لم يكن بعيداً عن الصواب.

فقد ذكر اللورد كورزون ان اتفاقية سايكس ـ بيكو ليست اتفاقية عفا عليها الزمن فحسب «بل هي غير عملية اطلاقاً»[٣٠]. وقد أوضح بصفته رئيس «اللجنة الشرقية» المكلفة بتعريف ما تشتهي بريطانيا تحقيقه في الشرق الأوسط بعد الحرب، ان بريطانيا تود خروج الفرنسيين من سورية كلياً[٣١]. ولكن ممثلاً لوزارة الحربية أبلغ اللجنة أن السبيل الوحيد لفسخ الاتفاقية هو العمل من وراء «واجهة عربية» لمناشدة الولايات المتحدة أن تدعم نظريات ويلسون بشأن تقرير المصير[٣٢].

قال كورزون انه: «عندما أعدت صيغة اتفاقية سايكس ـ بيكو كانت نية مؤلفيها بلا ريب أن تكون نوعاً من مسودة تخيلوها، الغاية منها أن تلائم وضعاً لم ينشأ بعد، وكان الظن أن نشوءه أمر بعيد الاحتمال جداً. وهذا، في زعمي، لا بد أن يكون التفسير الرئيس للجهل الكبير الذي اتسم به رسم الحدود في هذه الاتفاقية»[٣٣].

شعر لويد جورج أيضاً أن الاتفاقية قد تجاوزتها الأحداث، ولكنه على أية حال كان معارضاً لها منذ البداية. وكعادته مع المحببين اليه، انتحل أعذاراً لسايكس وأعاد كتابة التاريخ لتبرئته من الملامة. فقد كتب بعد عقود من السنين:

«انه أمر لا تفسير له أن يمهر رجل في مثل ذكاء سير مارك سايكس الرائع، مثل هذه الاتفاقية

---

(٢٨) اوكسفورد. كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق مارك سايكس. د.ر. ٥٨٨/٢٥ (د.س. ١/٤٢).

(٢٩) اوكسفورد. كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق ديفيد هوغارث ٣٠ (٢).

(٣٠) كيو. مكتب السجل العام. مجلس وزراء الحرب، اللجنة الشرقية. سي. اي. بي ٢٤/٢٧. ص ١٨٦.

(٣١) المرجع نفسه، ص ١٨٧.

(٣٢) المرجع نفسه، ص ١٦٩.

(٣٣) ديفيد لويد جورج، **مذكرات مؤتمر الصلح** (نيوهافن: مطبعة جامعة بيل، ١٩٣٩)، المجلد ٢، الصفحات ٦٦٤ ـ ٦٦٥.

بتوقيعه. كان دائماً يشعر بالخجل منها، وقد دافع عن موافقته على أحكامها بالقول انه كان يعمل وفق تعليمات محددة تلقاها من وزارة الخارجية. لهذا السبب كان شديد النقمة على التذكير الدائم والذي لا يمحى، بأن اسمه كان وسيظل دائماً مرتبطاً باتفاق ليس مسؤولاً شخصياً عنه سوى مسؤولية اسمية، اتفاق أنكره انكاراً كاملاً»[٣٤].

في رأي لويد جورج «كانت اتفاقية سايكس ـ بيكو ترتيباً تافهاً من أية وجهة نظر حكمنا عليها»[٣٥].

حتى سايكس نفسه أقر بذلك في نهاية الأمر: فقد كتب بتاريخ ٣ آذار (مارس) ١٩١٨ الى وينغيت وكلايتون قائلاً انه يجب التخلي عن الاتفاقية بسبب الأحداث التي وقعت كدخول الولايات المتحدة الحرب، والنقاط الأربع عشرة التي أعلنها وودرو ويلسون، والثورة البلشفية ونشر البلشفيك أحكام اتفاقية سايكس ـ بيكو أمام عالم من الواضح انه مستاء[٣٦]. وبتاريخ ١٨ حزيران (يونيو) ١٩١٨ أبلغ «اللجنة الشرقية» انه بالرغم من أن أنصار الشريف حسين لا يحق لهم الاستياء من اتفاقية سايكس ـ بيكو، لأنه أطلع الحسين على أحكامها بالتمام، فيجب على بريطانيا أن تطلب من فرنسا الموافقة على أن الاتفاقية لم تعد قابلة للتطبيق[٣٧]. وبعد مرور شهر آخر أبلغ اللجنة «ان اتفاقية عام ١٩١٦ ماتت ولو أن الفرنسيين يرفضون الاقرار بموتها. والمطلوب الآن ادخال تعديل عليها أو إيجاد بديل لها»[٣٨]. أما وقد رفض الفرنسيون تعديل الاتفاقية فقد تابع التفاوض بشأن أحكام ادارة المناطق المحتلة على أساس أن الاتفاقية ظلت قائمة.

في ٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٨ دوّن ليو ايميري في مفكرته ما يلي: «تحدثت الى سايكس حول ما يجب عمله بشأن اتفاقية سايكس ـ بيكو. لقد أوجد خطة جديدة تدل على نبوغ بالغ تبتعد فرنسا بموجبها عن كامل المنطقة العربية ما عدا لبنان» وتحصل بالمقابل على كل كردستان وأرمينيا «من أضنة الى بلاد فارس والقوقاز»[٣٩]. ولكن الفرنسيين لم يوافقوا.

وإذ تناول سايكس احتجاج فيصل لدى اللنبي القائل: «انه لا يقبل ببلد لا مرفأ له»، استقصى امكانية ايجاد حل وسط تعدل بموجبه اتفاقية سايكس ـ بيكو بالحاق مرفأ على الساحل في منطقة الاشراف الفرنسي المباشر، بالمنطقة التي سيحكمها فيصل. وقد بدا أن الجنرال اللنبي

(٣٤) المرجع نفسه، ص ٦٦٥.

(٣٥) **مذكرات ديفيد لويد جورج عن الحرب**، المجلد ٤: ١٩١٧ (بوسطن: ليتل وبراون، ١٩٣٤)، ص ٨٦.

(٣٦) **رسائل وأوراق حاييم وايزمان**، المجلد ٨، السلسلة آ، **تشرين الثاني ١٩١٧ ـ تشرين الأول ١٩١٨**، أعدها للطباعة دفورة بارزيلاي وبارينت ليتفينوف (القدس: مطبعة الجامعة الاسرائيلية، ١٩٧٧)، ص ٢٣٠.

(٣٧) كيو. مكتب السجل العام. مجلس وزراء الحرب، اللجنة الشرقية. سي. اي. بي. ٢٧/ ٢٤ محضر اجتماع ١٨ حزيران ١٩١٨.

(٣٨) المرجع نفسه، محضر اجتماع ١٨ تموز ١٩١٨.

(٣٩) **مفكرات ايميري**، ص ٢٣٧.

يأمل في نجاح هذه المقاربة، فكتب بتاريخ ١٥ كانون الأول (ديسمبر) الى زوجته قائلاً: «ان سايكس مندفع لاسترضاء العرب واعطائهم مرفأ، وبيكو أقل شوفينية مما كان»[٤٠]. ولكن هذه المقاربة أيضاً لم تسفر عن شيء.

رفض الفرنسيون التخلي عن أي حق من حقوقهم بموجب الاتفاقية. ولكن كانت ثمة وحدة رأي بين المسؤولين البريطانيين العاملين في الميدان بأن محاولة تطبيق أحكامها ستكون أمراً كارثياً.

أما أتباع اللورد كيتشنر المتوفى الذين كانوا يرددون الرأي نفسه ولكن كعادتهم بأصوات متعددة، فانهم كانوا منذ بعض الوقت يعربون عن رأيهم بوجوب الغاء اتفاقية سايكس ـ بيكو لمصلحة الصداقة الصهيونية ـ العربية في فلسطين. وكانت هذه الصداقة قضية آمن بها سايكس صادقاً. وثمة شكوك في أن زملاءه الذين أثاروا هذه النقطة كانوا يشاطرونه ايمانه.

لقد قال رونالد ستورز، حاكم القدس ان العرب مستعدون لقبول البرنامج الصهيوني فقط تحت حكم بريطاني في فلسطين[٤١]. وقال جيلبرت كلايتون ان القضيتين العربية والصهيونية «بينهما تكافل» ويمكن ارضاء كلتيهما وسوف يكون بينهما تعاون، ولكن فقط إذا أمكن جعل الفرنسيين يوافقون على أن اتفاقية سايكس ـ بيكو «لم تعد أداة عملية»[٤٢]. وقد ساعد حاييم وايزمان في الحملة فكتب الى بلفور على غرار ذلك، مضيفاً ان الدسائس الفرنسية التي تهدف الى ضمان امتيازات تجارية حصرية انما تحجب قضية تقرير المصير لليهود كما للعرب[٤٣]. وأبلغ لورنس «اللجنة الشرقية»، انه: «لن تكون هناك صعوبة في التوفيق بين الصهيونيين والعرب في فلسطين وسورية بشرط أن تبقى الادارة في فلسطين في أيد بريطانية»[٤٤].

إذا ما كان ممكناً الغاء الاتفاقية في ما يتعلق بفلسطين، فما من سبب يمنع من الغائها في ما يتعلق بسورية أيضاً ـ ولو أن رئيس الوزراء لويد جورج أكّد تكراراً أن لا رغبة لدى بريطانيا في الاستيلاء على سورية لنفسها، كما أن المسؤولين البريطانيين في الميدان ادعوا مثل هذا الادعاء، مؤكدين انهم يريدون من فرنسا أن تتخلى عن مطالبها، لا لمصلحة بريطانيا وانما لمصلحة دولة عربية مستقلة بقيادة فيصل. كان في هذا منتهى عدم الأمانة، لأن مسؤولي المكتب العربي لم يؤمنوا بأن العرب قادرون على حكم أنفسهم بأنفسهم. إن ما قصدوا بالبلد المستقل الذي يحكمه فيصل، هو بلد خاضع لتوجيههم بصفتهم ممثلي بريطانيا.

وقد جاء في تقرير أرسله ديفيد هوغارت، رئيس المكتب العربي الذي خلف كلايتون بصفة كبير الضباط السياسيين في الميدان، من دمشق المحررة حديثاً، ان ادارة فيصل العربية تفتقر الى

---

(٤٠) لندن، كلية كنغ (الملك). مركز ليدل هارت لمحفوظات الوثائق العسكرية. أوراق اللنبي. ١ ـ ٩ ـ ٢١.

(٤١) كيو. مكتب السجل العام. أوراق المكتب العربي. وزارة الخارجية ٨٨٢. المجلد ٢٤. الوثيقة ٩٢٣٩٢.

(٤٢) المرجع نفسه، الوثيقة ١٢٣٩٠٤.

(٤٣) المرجع نفسه، الوثيقة ١٣٨٩٠٨.

(٤٤) مكتب السجل العام. مجلس وزراء الحرب، اللجنة الشرقية. سي.اي.بي ٢٧/ ٢٤ الصفحات ١٥٣ ـ ١٦١.

الكفاءة، وانه لا بد من دولة أوروبية لتسيير الأمور[٤٥]. فإذا استبعدت فرنسا كان جلياً من هي الدولة الأوروبية (من وجهة نظره) التي ستضطر الى تولي المسؤولية.

(٥)

بعد نحو أسبوعين من لقائه مع فيصل في فندق فيكتوريا في دمشق، عاد سير ادموند اللنبي الى دمشق ليكون ضيف الأمير فيصل في مأدبة عشاء. وكتب بعد ذلك الى زوجته قائلاً: «أقام لي عشاء فاخراً. أطباق عربية، ولكنها كلها جيدة، قدمت بالطرق الحضارية المعتادة، المشروب ماء، ولكنه جيد، ماء نقي بارد، وليس ماء الشعير الفاتر!» وأضاف اللنبي: «ستحبين فيصل. انه حاد البصر، نحيل، ممشوق، يداه جميلتان كيدي امرأة، وأصابعه دائبة الحركة عندما يتكلم. ولكنه قوي الارادة مستقيم في المبدأ». أما في ما يتعلق بالأمور السياسية «فهو متوتر الأعصاب بشأن تسوية الصلح، ولكني لا أفتأ أقول له انه يجب أن يثق بأن دول التحالف ستعامله معاملة منصفة»[٤٦].

«ثق بدول التحالف»: ما كان بامكان فيصل أن يرى في ذلك أساساً صلباً لحظوظه في المستقبل. فدول التحالف لا تثق حتى ببعضها بعضاً. ان الفرنسيين لا يصدقون أن البريطانيين يمنحون الأماني اليهودية والعربية رعايتهم بنية صادقة، أما البريطانيون فانهم يبحثون كيف، وليس هل، يفسخون اتفاقاتهم مع فرنسا. ثم لا بريطانيا ولا فرنسا عازمة على الوفاء بالتزاماتها في زمن الحرب لايطاليا. كذلك، لا بريطانيا ولا فرنسا ميالة الى تطبيق برنامج وودرو ويلسون المثالي الذي، عندما كانت واشنطن الطرف المستمع، تظاهرتا بالتعاطف معه.

كان فيصل يعلم أن القادة البريطانيين كانوا، الى سنة خلت، يمعنون الفكر من وراء ظهره في صلح توافقي يتم بموجبه تقاسم الامبراطورية الروسية بدلاً من الامبراطورية العثمانية ـ تاركينه ووالده تحت رحمة الأتراك. وكان يعرف أيضاً أن بريطانيا وفرنسا اتفقتا قبل ذلك بسنتين على اقتسام العالم العربي بينهما، وانهما لم تكشفا تفاصيل اتفاقهما له الا عندما اضطرتا الى ذلك.

لم تكن الثقة جزءاً من الأجواء التي كان يعيش فيها فيصل. فهو نفسه كان ذلك العام قد راسل الأتراك بشأن الانتقال من جانب الى آخر في الحرب. فلا هو ولا الجانب التركي كان صادقاً مع بريطانيا، ولم يكن فيصل صادقاً حتى مع والده.

جنوده النظاميون الوحيدون كانوا من الجنود الفارين من معسكر العدو. ويمكن بسهولة أن يتخلوا عنه أيضاً إذا أفل نجمه. أما رجال القبائل البدوية حلفاؤه فقد كانت سمعتهم السيئة

(٤٥) دورهام. جامعة دورهام. محفوظات وثائق السودان. أوراق ريجينالد وينغيت. ١٥٠/١٠/١ ـ ١٣٧.

(٤٦) لندن. كلية كنغ (الملك). مركز ليدل هارت لمحفوظات الوثائق العسكرية. أوراق اللنبي. ١ ـ ٩ ـ ١٥.

انهم متقلبون لا يثبتون على حال، وينتقلون من جانب الى آخر في شبه جزيرة العرب وحتى في ساحة المعركة نفسها. ولم يقفوا الى جانبه أساساً إلا بفضل الذهب، ولم يكن الذهب من جيبه بل من المال الذي يصرفه لهم لورنس. أما السوريون فقد قبلوه لأن الجيش البريطاني فرضه عليهم.

حتى جسده كان يشي به. ان أصابعه كانت تنم عن القلق. كان متوتر الأعصاب ـ وكل الأسباب كانت تجعله متوتر الأعصاب.

الجزء الثامن

غنائم النصر

«الغنائم للمنتصر»
ف. سكوت فيتز جيرالد

الفصل الاول

افتراق الطرق

(١)

بعد أن أصيبت الامبراطوريتان العثمانية والبريطانية بالدوار من جراء الارهاق واستحكمت بهما نوبات هستيريا الحرب، ألقتا بنفسيهما الى الصحارى النائية والبحار الداخلية لخوض سلسلة من الحملات الختامية التي لم تسفر عن نتيجة حاسمة وقلما تستعيدها الذاكرة. ولكن نشأ في مجرى المناورات العسكرية والسياسية تطوران كان لا بد من أن يؤثرا تأثيراً عميقاً على مستقبل القرن العشرين. فقد وجدت الجيوش الغربية نفسها في حالة حرب مع روسيا، الحليفة السابقة، وصار النفط مسألة بالغة الأهمية في المعركة من أجل الشرق الأوسط.

الأمر كله بدأ لأن أنور باشا، بدلاً من أن يحاول معالجة وضع الهزيمة في سورية، فتح مسرح عمليات جديداً ضد خصم أقل هولاً. ونتيجة لذلك كانت بريطانيا تنتقل من نجاح الى نجاح في الولايات الناطقة بالعربية من الامبراطورية العثمانية، بينما كانت القوات العثمانية الى الشمال تنتقل من نجاح الى نجاح في ما كان الامبراطورية الروسية. فكانت تركيا وبريطانيا في النصف الثاني من عام ١٩١٨ مشتبكتين في ما بدا انه ليس حرباً واحدة بل هما حربان متوازيتان كانتا فيهما تسعيان الى أهداف متماثلة: أي حرمان حلفائهما من حصة في الأرباح. لقد كان أنور باشا، شأنه شأن لويد جورج، رجلاً استحوذت عليه فكرة غنائم النصر المقبلة بحيث لم يطق اقتسامها مع بلدان أخرى. فهذا الزعيم التركي شبه الدكتاتور، كنظيره البريطاني شبه الدكتاتور، جازف بتعريض تحالفاته للخطر في سبيل طموحات امبراطورية.

نظر لينين الى الأمور نظرة مختلفة وخاطئة. فالامبريالية - وتعريفها هو السعي وراء الحصول على مستعمرات - لم تكن هي مسببة الحرب، بل الحرب هي التي ولّدت الامبريالية. ان الخسائر التي كانت تترنح تحت وطأتها الدول المتحاربة هي التي دفعت هذه الدول الى محاولة تعويض الخسائر بالبحث عن مكاسب جديدة. وكان انهيار الامبراطورية الروسية ملبياً للحاجة الى عوالم

جديدة يمكن فتحها. فممتلكاتها جاهزة للاستيلاء عليها. كان مما يقلق اللورد ميلنر أن الحاق الهزيمة بألمانيا قد يزداد صعوبة إذا ما انسحبت روسيا من الحرب، الأمر الذي طرح احتمال صلح وفـاقي عبر التفاوض تحصل فيه بريطانيا على تعويض بواسطة اقتسام الامبراطورية الروسيـة بدلاً من الامبراطورية العثمانية. بيد أن ألمانيا بعد أن حطمت امبراطورية القيصر الروسي لم يكن مزاجها يسمح باقتسام مكاسبها مع دول التحالف. وقد واصل الألمان حملاتهم الحربية والتخريبية على روسيا. ومع ازدياد الحاجة في زمن الحرب الى منتجات زراعية ومواد أولية تنامت أهداف ألمانيا لما بعد الحرب، من حيث اكتساب العظمة، وصارت أبعد مدى، وفيما كان الألمان يسعون لتحقيق أهدافهم، تصادموا مع حلفائهم الأتراك.

كان حلم أنور باشا أن يأتي يوم يوجد فيه جميع الشعوب الناطقة بالتركية في آسيا تحت قيادة عثمـانيـة، ولكن هذا الحلم لم يتحـول الى برنامج سياسي عملي إلا عندما لاحت أمامه هذه الامكانية نتيجة تفكك سلطة بيتروغراد. وقد شجع ونستون تشرشل وغيره بعد الحرب الأسطورة القائلة أن حزب تركيا الفتاة يعتنق عقيدة الوحدة التركية الشاملة (الطورانية) منذ البداية، وانه زج تركيا في الحرب سعياً وراء تحقيق خطط توسعية في آسيا الوسطى. غير أن الأدلة المتوافرة الآن تثبت عكس ذلك: فالمطالب التي قدمتها جمعية الاتحاد والترقي إلى ألمانيا منذ عام ١٩١٤ وحتى نهاية ١٩١٧ تبيّن أن تفكير القادة الأتراك آنذاك كان في جوهره تفكيراً دفاعياً آملين على أبعد تقدير أن يدعموا حدودهم لكي يكتسبوا استقلالاً أكمل داخل هذه الحدود. ولم يخطط أنور باشا جدياً لتوسيع الامبراطورية العثمانية شرقاً، إلا في عام ١٩١٧. وقد بدا له أن هنالك مناطق شاسعة لم تعد ملك قيصر روسيا وهي جاهزة لأخذها، ويمكن أن تعوض عما أخذته بريطانيا في الجنوب الناطق بالعربية.

جاء في تقرير للمخابرات البريطانية عن حركة توحيد الشعوب الناطقة بالتركية جميعها، الحركة الطورانية، وهو من اعداد دائرة الاعلام في خريف عام ١٩١٧، ان هنالك خارج الامبراطورية العثمانية عدداً يقدر بأكثر من سبعة عشر مليون انسان في آسيا يتكلمون لغة أو أكثر من اللغات ذات الجذور التركية. وقال التقرير: «ان آسيا الوسطى الناطقة بالتركية هي احدى أكبر المناطق في العـالم التي حافظت باستمرار على لغتها ـ أكبر من منطقة روسيا الكبرى وتكاد تعادل في مساحتها المنطقة الناطقة بالانكليزية أو المنطقة الناطقة بالاسبانية في أميركا». ومع أن التقرير تحدث بازدراء عن الطورانية كعقيدة، فقد كانت الصورة التي رسمها لها، صورة أداة خطرة في أيدي قادة حزب تركيا الفتاة. «السكان جميعهم أتراك، والسكان جميعهم مسلمون سنّة، والمالك الحالي (أي روسيا) ليس دولة اسلامية عريقة بل هو فاتح مسيحي حديث عهد». وإذا ما أوجدت جمعية الاتحاد والترقي دولة تركية ـ إسلامية هناك، متحالفة مع فارس وأفغانستان، ستواجه الهند تهديداً مباشراً». ان هذه الدولة ستنشىء منطقة شاسعة معادية لبريطانيا في داخل آسيا، وموقعها خلف القبائل المعادية لبريطانيا في منطقة الحدود الشمالية الغربية للهند»[1].

(١) كيو. مكتب السجل العام. أوراق المكتب العربي. وزارة الخارجية ٨٨٢ المجلد ١٨ الوثيقة تي.يو./١٧/١٧.

ومع ادراك أنور باشا لهذه الامكانيات، فانه لم يقدم على خطوة متهورة بل ترك الأحداث تأخذ مجراها لمصلحته. ان خلع قيصر روسيا خلف جيشاً روسياً تعداده نصف مليون جندي في شمال شرق تركيا، متحكماً بمدن كبيرة. مثل تربيزون، وأرضروم وفارس. وهؤلاء الجنود، بداية على أقل تقدير، ليسوا بلشفيكاً في عواطفهم، ولكنهم يعانون من انهاك الحرب. ومع انهيار الانضباط فقد فروا وعادوا الى روسيا. وبالاتفاق مع هيئة الأركان العامة الألمانية، لم تهاجم القوات العثمانية الخطوط الروسية الذاوية، بل تركت الجيش الروسي يتقلص من تلقاء نفسه الى أعداد لا يؤبه بها.

ومع استيلاء البلشفيك على السلطة في بيتروغراد في خريف عام ١٩١٧، لم يتبق عملياً سوى قوة متطوعين من مناطق عبر القوقاز القريبة من الحدود وبضع مئات من الضباط الروس[٢]. مع ذلك لم يقم أنور بأي تحرك، متوقعاً أن يسعى البلشفيك للصلح، وهو ما فعلوه بعد عدة أسابيع.

وتحسن أيضاً من ذاته الوضع العسكري التركي على الحدود الشرقية مع فارس. فقد كانت القوات البريطانية في جنوب فارس تعمل خلف درع من القوات الروسية في الشمال، فلم تعد الآن قادرة أن تفعل ذلك وهي مطمئنة. وبعد أن استحوذت الحماسة الثورية على الجنود الروس، ازدادت صداقتهم للقوميين الفرس بعد أن كان هؤلاء الجنود يمنعون نشاطهم. وبتاريخ ٢٧ أيار(مايو) عام ١٩١٧ سقط النظام الموالي للحلفاء في طهران، وحلت محله بتاريخ ٦ حزيران (يونيو) حكومة وطنية المنحى اتصلت مع بيتروغراد بغية تقليص الوجود العسكري الروسي.

لقد خشي مسؤولون كبار في وزارة الحربية في لندن احتمال قيام تركيا بهجوم عبر فارس في اتجاه أفغانستان[٣] ـ مع أن رئيس هيئة الأركان العامة لقوات الامبراطورية البريطانية لم يشاطرهم وجهات نظرهم. وتراوح مجلس الوزراء البريطاني في موقفه بين تقديم تنازلات الى النظام الفارسي الجديد وترك العلاقات تتدهور. كانت الأخطار ظاهرة في كلتا الحالتين.

وعندما تلاشت سلطة حكومة كيرنسكي في بيتروغراد، بدا للمسؤولين البريطانيين أنه لم يعد بالامكان الاعتماد على الجيش الروسي في شمال فارس. وفي ٣١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٧ قررت لجنة وزارية في مقر رئاسة الوزراء في بريطانيا أن تدفع رواتب الشرائح غير البلشفية من الجيش الروسي في شمال فارس، وبالرغم من ذلك تبين أن الروس غير مستعدين للانسياق وراء بريطانيا.

وما أن استولى البلشفيك على السلطة في بيتروغراد في الأسبوع اللاحق، حتى وصلت الأمور بسرعة الى حالة صدام. ففي غضون شهور، أي في ٢٩ كانون الثاني (يناير) ١٩١٨، أعلن

(٢) اولريش ترمبينر، **المانيا والامبراطورية العثمانية: ١٩١٤ ـ ١٩١٨** (برنستون: مطبعة جامعة برنستون، ١٩٦٨)، ص ١٦٧.

(٣) فريدريك ستانوود، **الحرب والثورة والامبريالية البريطانية في آسيا الوسطى** (لندن: مطبعة ايتاكا، ١٩٨٣)، الصفحتان ٣٢ ـ ٣٣.

تروتسكي، القوميسار السوفياتي للشؤون الخارجية، نبذ اتفاق عام ١٩٠٧ الذي شكّل أساس الاحتلال الانكليزي ـ الروسي لبلاد فارس. وإذ أنكر تروتسكي المسؤولية عن أية قوات روسية مناوئة للبلشفيك على الأرض الفارسية، أعرب عن الأمل في أن تنسحب أيضاً الجيوش الأجنبية الأخرى التي تحتل أرضاً فارسية ـ أي الأتراك والبريطانيين.

خشيت الحكومة البريطانية أن يؤدي الانسحاب الروسي الى جعل الجيش الهندي في بلاد الرافدين مكشوفاً لهجوم من الخلف تشنه قوات عثمانية مندفعة عبر فارس. ذلك أنه بالرغم من النزاع الطويل بين الامبراطوريتين في تلك المنطقة، اعتادت بريطانيا أن تعتمد على روسيا في الوقوف في وجه الأتراك في شمال فارس، ولم تعد تدري أي نهج تسلك لدى انسحاب هذه الحماية بصورة مفاجئة.

(٢)

في شهر آذار (مارس) ١٩١٨ فرضت ألمانيا على الروس المهزومين شروط هدنة ساحقة. وما ان وقعت الامبراطوريتان العثمانية والالمانية الهدنة مع روسيا حتى بدأتا تتنازعان امتلاك المقاطعات المحاذية للحدود التركية التي كانت تحكمها الامبراطورية الروسية. كانت جورجيا وأرمينيا المسيحيتان وأذربيجان الاسلامية ـ وثلاثتها مجتمعة تدعى بلاد عبر القوقاز ـ مستقلة الآن. وقد كانت المانيا في حاجة ملحة الى ثروة جورجيا الزراعية والمعدنية وشبكة السكك الحديدية فيها، وكانت في حاجة أشد الى آبار نفط أذربيجان، لتغذية مجهودها الحربي. وكان القادة الألمان ينظرون بعيداً الى عالم ما بعد الحرب، فعزموا على استخدام عبر القوقاز كرأس رمح يشقون به طريقهم الى أسواق الشرق الأوسط.

وتطلع القادة العثمانيون بدورهم الى الفوائد التجارية للمقاطعات الواقعة عبر حدودهم، فأخذوا يفكرون باستعادة الخط التجاري القديم مع إيران، وإحياء تجارتهم مع منطقة البحر الأسود والقرم. وكان هدف أنور في المقام الأول خلق امبراطورية تركية جديدة تمتد الى آسيا الوسطى، وتكون منطقة عبر القوقاز صلة الوصل بها.

كانت قناعة أنور أن ألمانيا تجاهلت المصالح التركية عندما فاوضت على شروط الهدنة مع روسيا، فشرع بدوره يتجاهل المصالح الألمانية في بلاد عبر القوقاز، وأرسل خيرة ما تبقى من جيوشه عبر الحدود لفتح جورجيا وأرمينيا والزحف على أذربيجان. ولهذه الغاية أنشأ فيلقاً خاصاً، سحبه من الجيش العثماني النظامي الذي كان يتغلغل فيه الضباط الألمان. وهكذا فان جيشه الجديد، «جيش الاسلام» لم يكن فيه ألمان، بل كان مؤلفاً فقط من جنود عثمانيين وتتار أذربيجانيين. وكانت الأوامر الصادرة الى هذا الجيش تقضي بالزحف على باكو، عاصمة أذربيجان، التي كان مجلس سوفيات محلي قد استولى عليها. وقد كانت باكو، المدينة الصناعية التي يقطنها نحو ٣٠٠,٠٠٠ نسمة والواقعة على شاطىء بحر قزوين، نصف اسلامية ومختلفة تماماً عن

المناطق الداخلية المحيطة بها وهي مناطق للتتار. وكانت آنذاك المدينة الكبيرة المنتجة للنفط في الشرق الأوسط.

مع حلول عام ١٩١٨ بدأ الوعي العام لأهمية النفط العسكرية(*). وكانت الأميرالية البريطانية وعلى رأسها تشرشل قد انتقلت قبل الحرب الى استخدام النفط وقوداً لسفن الأسطول، وبدأ الحلفاء خلال الحرب يعتمدون اعتماداً شديداً في النقل البري على الشاحنات التي تسير بالنفط. كذلك فان الدبابات والطائرات أخذت تؤدي دورها الكامل في الأيام الأخيرة من الحرب، وهي أيضاً تستهلك كميات من النفط ومشتقاته. وفي عام ١٩١٨ بدأت حكومة كليمنصو في فرنسا ووزارة البحرية الأميركية تعيان ما صار للنفط من أهمية أساسية.

أما ألمانيا التي كانت تواجه نقصاً، فقد بنت حساباتها على تعويض مواردها من مناطق جنوب روسيا وغربها التي استولت عليها، كما انها سيطرت على جانب كبير من اقتصاد جورجيا خلال عام ١٩١٨. ولكن الحكومة في برلين لم تعتبر ثروات جورجيا كافية. ان تسابق أنور باشا مع ألمانيا على احتلال باكو في أذربيجان كان يهدد بحرمان ألمانيا من النفط الذي كانت تحتاجه حاجة ماسة، وكان يهدد أيضاً بإفساد الهدنة التي تم ترتيبها مع روسيا. وقد وجه قادة الأركان العامة الألمانية الذين استشاطوا غيظاً مذكرات غاضبة الى أنور، فتجاهلها.

لقد أبلغ وزير الدولة الألماني لشؤون البحرية كبار المسؤولين في وزارة الخارجية وهيئة الأركان العامة في بلاده أن السيطرة على نفط باكو أمر بالغ الأهمية بالنسبة لألمانيا، ولذلك يجب إيقاف الهجوم العثماني على المدينة[٥]. وقد أبلغ القادة الألمان السفير الروسي في برلين انهم سيتخذون خطوات لوقف التقدم العثماني إذا ما أعطت روسيا تأكيدات بتزويد ألمانيا ببعض احتياجاتها على الأقل من نفط باكو. وقد أبرق لينين الى ستالين ليبلغه هذا التطور قائلاً: «بطبيعة الحال سنوافق»[٦].

وكانت باكو ذات أهمية استراتيجية أيضاً. فهي مرفأ هام يسيطر على الملاحة في بحر قزوين، ومن شأنها أن تمكن أنور من نقل جيوشه بحراً، إذا اختار ذلك، الى الشاطىء الشرقي لبحر قزوين، حيث ينتظر من مسلمي تركستان أن يحتشدوا تحت لوائه، وحيث يستفيد هو من شبكة

(*) كان ونستون تشرشل هو الذي وعى هذه الأهمية قبل الحرب واتخذ في ذلك الحين ترتيبات لكي تبتاع الحكومة البريطانية غالبية أسهم شركة النفط الانكلو ـ فارسية، فأثار بذلك معارضة شديدة من قبل مسؤولين بريطانيين لم يروا الحاجة الى ذلك، وخصوصاً من داخل حكومة الهند[٤].

(٤) ماريان كنت، **النفط والامبراطورية: السياسة البريطانية ونفط بلاد الرافدين ١٩٠٠ ـ ١٩٢٠** (لندن وبيزنغستوك: مطبعة مكميلان لمدرسة العلوم الاقتصادية في لندن، ١٩٧٦)، ص ١١٨

(٥) ترومبينير، **الامبراطورية العثمانية**، ص ١٨٦.

(٦) فيروز كاظم زادة، **الصراع على مناطق عبر القوقاز (١٩١٧ ـ ١٩٢١)** (نيويورك: المكتبة الفلسفية واوكسفورد: جورج رونالد، ١٩٥١)، ص ١٣٥.

الخطوط الحديدية التي بناها الروس ليتمكنوا من الوصول الى أفغانستان ومهاجمة الهند.

وبما أن البريطانيين أدركوا الخطر تمام الإدراك، فقد كانوا ينظرون الى تقدم أنور بحذر شديد.

(٣)

كانت بعثتان عسكريتان بريطانيتان صغيرتان في شمال فارس تراقبان هذه الأحداث من وراء الحدود، دون أن تكون لديها فكرة واضحة عن الدور الذي ينبغي أن تقوما به في هذه الأحداث(٧).

عُين الميجر جنرال ل. دنسترفيل رئيساً للبعثة البريطانية الى القوقاز في مطلع عام ١٩١٨. لو أنه وصل الى مدينة تفليسي العاصمة الواقعة عبر القوقاز لكان عُين إضافة لمنصبه ممثلًا لبريطانيا هناك، حيث يكون هدفه أن يساعد على تصليب مقاومة الجيش الروسي في تركيا للتقدم العثماني.

انـطلقت قافلة دنسترفيل المؤلفة من إحدى وأربعين سيارة وشاحنة من طراز فورد عبر بلاد الرافدين الى بلاد فارس، ثم اتجهت نحو مرفأ فارسي على بحر قزوين يدعى انزيلي (سمي بعد ذلك بهلوي) على الطريق الى بلاد عبر القوقاز. وعندما وصل البريطانيون كان معظم منطقة عبر القوقاز قد سقط في أيدي العثمانيين أو الألمان. وقد أمرت الحكومة البريطانية القلقة دنسترفيل بأن يطهر الطريق الى أنزيلي من عصبة ثورية مؤلفة من القوميين الفرس ومتحالفة مع البلشفيك ولكنها تعمل أيضاً من أجل مصالح جيش الاسلام العثماني الزاحف.

ولدى اقتراب قوات أنور من مدينة باكو، ناقشت الحكومة البريطانية الدور الذي ينبغي أو الذي تستطيع القوة الصغيرة التي يقودها دنسترفيل أن تؤديه في المعركة غير المتوقعة من أجل آسيا الوسطى، والتي زج أنفسهم فيها الأتراك والألمان والروس وغيرهم. ونشأ السؤال عما ينبغي أن تفعله بعثة الميجر جنرال ولفريد ماليسون. كان الجنرال ماليسون ضابطاً في فرع المخابرات العسكرية في الجيش الهندي وقد خدم سنواتٍ في جهاز قيادة اللورد كيتشنر. وكانت سيملا قد أرسلته مع ستة ضباط الى مشهد، في شرق فارس، لمراقبة التطورات في أراضي تركستان الروسية، وهي أراضٍ شاسعة كان الاعتقاد أنهاالهدف التالي لأنور باشا. أي أن مهمة دنسترفيل كانت مراقبة الأراضي الواقعة غربي بحر قزوين، ومهمة ماليسون مراقبة الأراضي الواقعة الى الشرق.

كانت ثمة أمور عديدة تهم القادة العسكريين البريطانيين في المنطقة التي عُهد بها الى ماليسون، أحـدهـا مستـودع القـطن الكبير الذي قد يقع في أيدٍ عدوة. وأحد الأمور الأخرى هو وجود نحو ٣٥,٠٠٠ أسير حرب ألماني ونمساوي قد يخلي سبيلهم إما البلشفيك أو قوات أنور. وكان التفكك السياسي المتزايد في مناطق شرقي وغربي بحر قزوين يحجب عن القادة البريطانيين نيّات

(٧) الرواية الواردة تالياً مستندة إلى حد كبير على كتاب سي. اتش. اليس، **واقعة عبر قزوين: ١٩١٨ ـ ١٩١٩** (لندن: هتشنسـون، ١٩٦٣)، وكتاب ريتشارد اولمان، **العلاقات الانكليزية ـ السوفياتية ١٩١٧ ـ١٩٢١: التدخل والحرب** (برنستون: مطبعة جامعة برنستون، ١٩٦١).

قوات العدو العاملة في تلك المناطق. فمن الناحية السياسية ظهر الألمان وكأنهم على علاقات مودة محلياً مع المعادين للبلشفيك في تفليسي وانهم في الوقت عينه على علاقة مع البلشفيك في بيتروغراد، بينما حل الجفاء بينهم وبين الأتراك، الذين أصبحوا حلفاءهم في العلن وأعداءهم في السر. وكانت قوة الحلف الذي يقوده أنور والمؤلفة من عثمانيين ومسلمين أتراك أذربيجانيين وتتار، تزحف نحو باكو، التي كان يحكمها مجلس سوفيات منقسم على نفسه، وانقسامه كان يعكس الانقسام داخل المدينة نفسها. فنصف سكانها المؤلف من الأذربيجانيين كان محبذاً للامبراطورية العثمانية، بينما الأرمن، بدافع الخوف من المذابح، كانوا يحبّذون أية جهة ما عدا الأتراك. وكان الثوريون الاشتراكيون وغيرهم من الروس البلشفيك يخافون التدخل البريطاني ولكنهم بدؤوا في النهاية يخافون تركيا أكثر مما يخافون بريطانيا. وفي حين كان ستيبان شوميان، الرئيس البلشفيكي لمجلس السوفيات يقود المقاومة ضد التحالف العثماني ـ الأذربيجاني، كان مع ذلك يفضل الحكم التركي على التدخل البريطاني، ولكنه في أية حال تلقى أوامر مباشرة من لينين وستالين بعدم قبول المساعدة البريطانية.

أما في تركستان، فان مجلس السوفيات الروسي الذي يسيطر عليه البلشفيك، كان هو المشرف على مدينة طشقند، وهي واحة في الصحراء. ولكن القوات التابعة لهذا المجلس السوفياتي هزمت على أيدي أهل بخارى الأتراك، فاضطر المجلس الى الاعتراف بأمير بخارى حاكماً استعاد استقلاله، بعدما كانت بلاده قد وقعت تحت سيطرة الروس خلال اللعبة الكبرى في القرن التاسع عشر. ووصلت الى لندن شائعات تشير الى أن خانات بخارى وخيفا المستقلين حديثاً قد يتحالفون مع الباب العالي[٨].

كانت النظرة من لندن الى الفوضى في آسيا الوسطى انها مصدر خطر ومبعث أمل. أما الخطر فلأن هذا الوضع قد يسمح بهجوم على الهند وعلى الجيش الهندي في فارس وبلاد الرافدين، مما قد يشعل لهيباً يستحيل اخماده. وقد جاء في مذكرة لهيئة الأركان العامة البريطانية:

«ان ألمانيا ستستخدم الحركة الطورانية والعصبيّة المحمدية لكي تؤجج جمر الحرب الدينية الدائمة التوقد وتنشر لهيبها، بحيث تطلق على الهند تيار الغزو الاسلامي المحصور حالياً... وعندما كانت روسيا متعافية وكانت بلاد فارس تحت السيطرة، كان بامكاننا أن نتعامل مع صعوبة كهذه، أما إذا توفرت لعملاء الألمان حرية الوصول الى القبائل العاصية في أفغانستان وعلى حدود الهند، والتي نشأت وتربت على حكايات الثراء الأسطوري من وراء النهب الذي هو تقليد من تقاليدها، فإن أعداداً لا تحصى من المقاتلين المتوحشين قد تتدفق على السهول فتعمل فيها يد التخريب والقتل والتدمير. وعندها فإن المؤسسات التي شيدت خلال سنين طويلة من الحكم المتأني، سوف تزال خلال بضعة أسابيع قصيرة، وعندها ستدعو الحاجة الى نجدة حامية

(٨) ستانوود، **آسيا الوسطى**، ص ١٣٩.